

عُجالةُ القَادِم

في تَوضِيح معَاني قصيدَة القُطبِ ابن سَالم

وهو شرح أدبي ذوقي على القصيدة الفخرية

التي مطلعها «صفت لي حميا خلي»

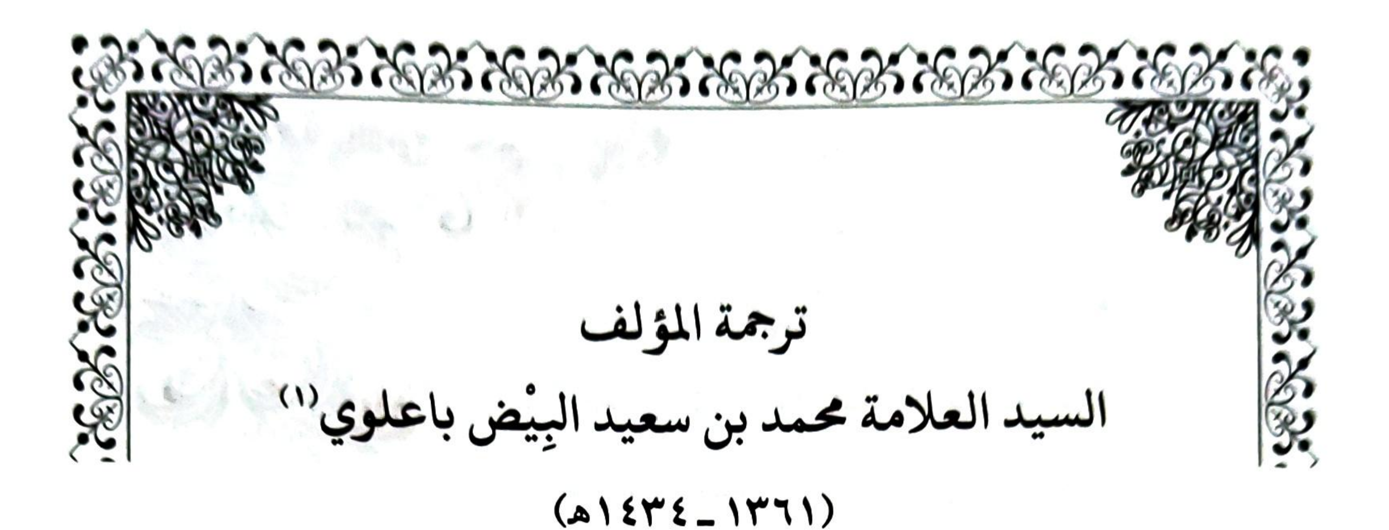
تأليف السيد العلامة

مَحمَّدِ بنِ سَعِيدِ بنِ عَبدِ اللهِ البيض بَاعلوي

(١٣٦١ - ١٤٣٤هـ)

اعتنى بها

د. محمد أبوبكر عبدالله باذيب



ترجمة المؤلف

السيد العلامة محمد بن سعيد البِيْض باعلوي[1]

(١٣٦١ ـ ١٤٣٤هـ)

هو المجاهد الكبير والداعية إلى الله تعالى، العالم العلامة، الأستاذ سيدي محمد بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن سالم بن حسين البيض العلوي.

ولد في الرياض بلامو ليلة الجمعة ١٩ جمادى الأولى سنة١٣٦١هـ، وأمه بنت السيد الرباني الحبيب أحمد البدوي بن القطب الحبيب صالح بن علوي جمل الليل.

تربّى أولاً بوالديه، وارتوى من معينِهما ماءً زلالا، وتعلمَ القرآن الكرم من الأستاذ السيد حسين بن أحمد البدوي، والشيخ المعلم محمد بن علوي آفو، ثم تعلم مبادئ العلوم الدينية في (مدرسة النجاح الإسلامية) وفي (الرياض) بلامو، ثمّ دخل في مجال اقتباس العلوم والفنون، فأخذ يتتبع دروس العلماء وروحاتهم التي كانت تعقد آنذاك في لامو، وكانت له قابليةٌ عظيمة في الإقبال على شتى الفنون.

وأبرز شيوخه في لامو: العلامة السيد محمد بن عدنان الأهدل وهو من أكبر شيوخه، والعلامة السيد علي بن أحمد البدوي، والعلامة السيد حسين بن أحمد البدوي، والأستاذ السيد علوي بن أحمد البدوي، ووالده المجاهد سعيد بن عبد الله البيض، والطبيب السيد الشريف سعيد بن عبد الرحمن بن أحمد البدوي، والعلامة السيد باحسَن بن علي البدوي، والقاضي الشيخ محمد بن شيخ الوائلي، وغيرهم.

ومن الشيوخ الذين عاصرهم واستفاد منهم: العلامة الأديب محمد بن علي

---

(١) بقلم ابنه صالح العارف بن محمد سعيد البيض.

المعاوي، والعلامة الشيخ سالم بن جمعان القيصري، والسيدان محمد وعمر ابنا أحمد السقاف، والعلامة الشيخ عبد اللطيف بن عثمان القمري، والداعية الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد، والقطب الحبيب عمر بن أحمد أبي بكر ابن سميط وغيرهم.

وقد أدرك في حضرموت والحجاز مشايخ واستفاد السيد الحبيب عمر بن علوي الكاف، منهم، من أبرزهم: والحبيب السيد عبد القادر الروش السقاف، والسيد الحبيب عيدروس بن هاشم الحبشي، والسيد الحبيب: أحمد آل فخر الوجود، والقطب الحبيب عبد القادر بن أحمد السقاف، والشيخ رشيد الراشد، والشيخ بكري رجب، والسيد الحبيب عبد الرحمن بن سالم البيض، وغيرهم.

وشيوخه بالإجازة: العلامة السيد علوي بن عباس المالكي، والعلامة السيد سالم بن جندان، والعلامة الحبيب محمد بن سالم بن حفيظ، وغيرهم.

بدأ بالتدريس سنة ١٣٧٥هـ في (مدرسة النجاح الإسلامية) إلى سنة ١٣٨٢هـ، ثم انتقل إلى منبع الرَّو بطلَبٍ من أهلها، وبإشارة من والده، وكان أول مدير ومدرس في (مدرسة النور الإسلامية)، وتخرج بهمَّته الكثير من الأساتذة والمعلمين، وكلٌّ له مركزٌ أو مدرسَة. من أبرزهم: أخوه السيد أحمد بن سعيد البيض، والأستاذ الأديب أحمد بن عمر بن مبارك، والأستاذ محمد بن سعيد الخطاط، والأستاذ عبد الرحيم بن محمد بن سعيد، والأستاذ يسلم بن محمد كعْوِيلي، والأستاذ سعيد بن علي، الأستاذ عثمان بن حاج عمر، والأستاذ شعبان بن حسن عبدي، والأستاذ بدر بن خميس، والأستاذ رمضان بن محمد، والأستاذ إبراهيم سعدالله، وغيرهم. وفي (لامو): السيد أحمد بن علوي جمل الليل، والسيد محسن بن علي البدوي، والسيد أحمد منصب الأهدل، والشيخ عمر بن مبارك بن هادي، والشيخ حامد عبد القادر، وغيرهم.

جاب البقاع والأصقاع والبلاد في داخل «شرق أفـريقيا» وخارجه لنشر الدعوة الإسلامية والطريقة الصحيحة، فما من مكانٍ قاصٍ ودانٍ، في شرق أفر يقيا خاصّة إلا

وهو قد وصَل إليه للدعوة، ولا يعتمِدُ على أحد في دعوته، بل يكتفي ما لدَيه، وأبغض الأشياء إليه السؤال والوقوف في أبواب الأغنياء المتكبرين.

ويشرف على أكثر من مائة مدرسة وأسلمَ على يديه الكثير، وله رحلات متتابعة في السنة كلها، وخاصة في شهر رمضان المبارك، فلا ينامُ في بيته في رمضَان إلا ليلتين، وباقي الأيام يكونُ في رحلاته المباركة، ويصلي العيدَ حيثُما أدركه العيد، وفي الربيعين الأولِ والثاني يحضُر فيهما في حلقاتِ الموالد، فلا يمرُّ يومٌ أو يومان إلا وهو في مكان غير الذي كان من قبل، وقد أسَّس هو بنفسِه، ولله الحمدُ، أكثر من مائةِ مولد في بلدان عديدة. وقد رحل إلى حضرموت ثلاث مرات، وإلى الحجاز مراتٍ عديدة للحج والعمرة، وإلى الهند والسند، والإمارات، وجنوب السودان، وكلها لأجل الدعوة النبوية، وله إبداعاتٌ جديدة في التدريس وقد وضعَ لها القبول، فأكثر مدارس كينيا تقتفي نهْجَه الجديد.

وله مؤلفاتٌ كثيرة منها:

١ ـ النفائسُ الغُرَر شرح سمط الدرر.

٢ ـ والرحلتان إلى حضرموت.

٣ ـ والرحلة إلى الهند والسند.

٤ ـ وطي المراحل في تاريخ السواحل.

٥ ـ ورشفات النهلان في علوم القرآن.

٦ ـ ديوانٌ شعري. وغيرها.

وبأمر من الداعية الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد أسَّسَ مركزَه، فسماه (الغناء الإسلامية)، تبركاً بتريم الغناء، وقد أنجبَ العديد من الطلبة المتفوقين في الدروس. **وبالجملَة**: فالأستاذ سيدي محمد البيض عالم معتبر في شرق أفريقيا، حين عند الخصوم، ومجاهد، وداعية، وصادق في جميع أحواله، ووارث مقام

أسلافه وأجداده، ومعتمد آل باعلوي في السّواحل، صابر على ما يعانيه من دعايات كاذبة، مستقيم لا تزعزِعُه الرياح، بارز بروزَ الشمس في رابعة النهار، ومفوّهٌ محبّبٌ عند العامة والخاصة، ومؤلّفٌ مجيدٌ.

وبعد معاناة مع الأمراض المتكاثرة، نزل به الحمام فانتقل إلى جوار ربه راضياً مرضياً ظهر يوم الأحد ٢٤ صفر سنة ١٤٣٤هـ، موافق ٦ يناير ٢٠١٣م. ودفن عصر يوم الاثنين، وشيعه المئاتُ من الناس كأنهم السيل في التدفق والانسياح، ودفن في بلدة منبع الرو (ممبروي). ورثاه الشعراء والأدباء. وكثر الأسف على فقده، رحمه الله رحمة الأبرار، ونفع به وبعلمه وآثاره.

***

وصف النسخة الأصل[1]

تقع في ٢٤ صفحة مع صفحة العنوان، وهي مكتوبة بقلم المؤلف رحمه الله، وكتب تحت العنوان اسمه على النحو التالي: «محمد بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن سالم بن حسين البيض باعلوي، المدرس بمدرسة النور الإسلامية ممبروي منبع الرو مالندي كينيا. ومؤسس الغناء الإسلامي ١٣٨٦هـ، وخادم المدارس الإسلاميَّة بشرق أفريقيا ١٤٠٨هـ».

عجالة القادم

في

توضيح معاني قصيدة القطب ابن سالم

تأليف

محمد بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن سالم بن حسين

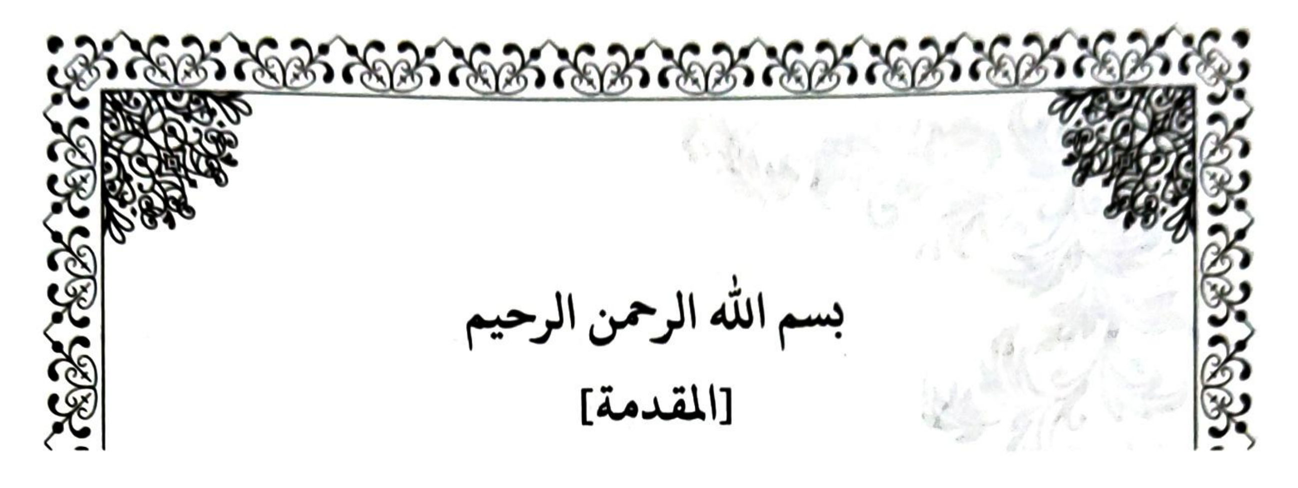
البيض باعلوي

المدرس بمدرسة النور الإسلامية / ممبروي / منبع الرو / مالندي كينيا

ومؤسس الغناء الاسلامية ١٣٨٦هـ وخادم المدارس الاسلامية

١٤٠٨هـ بشرقا أفريقيا

(١) أفادنا بهذه النسخة الأخ الكريم السيد حسن بن أحمد الكاف، حفظه الله، الذي حصل عليها من يد المؤلف شيخنا السيد محمد البيض رحمه الله تعالى.



بسم الله الرحمن الرحيم

[المقدمة]

الحمدُ لله الذي فتح لألباب أوليائه مشاهد القدْس، ونزّه أفكارهم عن وساوسِ النفسِ ودسائس الرجس، وأنعمَ عليهم في الدنيا وفي الآخرة بالنبوّةِ في مقعد الصدق ومقرّ الأنس، وأنار قرائحهم بأنوار الحقّ فارتقَوا إلى رفيع عالم القرب عما كانوا عليه في عالم الإنس. اللهم فصلِّ وسلّم على سيدنا محمدٍ كاشِف الكرب الفادحَة والبؤس، وعلى آله وصحبه شديدي العزيمة الذين رأوا قدْوَتهم ﷺ بعين العينِ لا بعين الحسّ، فشبِّهوا بعدَ كمال المتابعة به بالكواكب النيِّرة حول الشمس.

أما بعد؛ فنحن ندينُ الله ونعترف إليه بأنا نحب أولياءه ولا نعاديهم وننافحُ عنهم بكل قوانا، وأنَّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، لهم البشـرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة، وإنْ أولياؤُه إلا المتقونَ.

وللأولياء كلامٌ لا يعرفُه إلا الأقلّون، ولهم أيضاً رموز يزلُّ بها أفهامُ التائهينَ عن نهْجِهم، ورَطْناتٌ يشينهم بها الأعداءُ الألداءُ، أو الجهال الأغبياءُ، ولهم عباراتٌ ظواهرها منكَرةٌ وبواطنها مغمورة بالأنوار والإرشاداتِ لا يفطنها إلا من كتب الله له السعادة، وأراد له الفوز والهداية.

وقد بدا لي أن أكتبَ شيئاً وجيزاً في توضيحِ بعض الغوامِض من قصيدَة قطب الأقطاب، وسيد أهل الشهود، وفخر الوجود، سيدي الشيخ أبي بكر بن سالم، قدّس الله روحه، آمين. فأتعرضَ بذلك للنفحات الإلهية، فقد أخرج ابن النجَّار عن ابن عمر عن النبي ﷺ: «إن لربكم في أيام دهركم نفَحاتٍ ألا فتعرّضُوا لها».

وإياكَ يا أخي أن تفوه بكلمةٍ في تشنيع أمرهم، أو انتقاد أقدارهم، أو أن ترى لهم في شأنهم مثالبَ يؤاخَذُون بها، أو عثراتٍ ارتكبوها، فحاشاهم عن ذلكَ، بل تلك دقائقُ في طيها حقَائق. روى الطبراني في «الكبير» وابنُ قانعٍ، عن الحارث بن هشام، عن النبي ﷺ قال: «أملِكْ عليك لسانك».

قال أبو الطيب المتنبي:

وكَم من عائبٍ قولاً صحيحاً ... وآفته من الفهْم السَّقيمِ
ولكن تأخذُ الألبابُ منه ... على قدْر القرائحِ والفهُوم

فإن رابكَ منهم شيءٌ فكِلْ أمرهم إلى الله تعالى، والتمس لهم عذراً. قال الإمامُ جعفر الصادق رضي الله عنه: «إذا بلغك من أخيكَ ما تكرهُه، فاطلُبْ له من عذرٍ واحدٍ إلى سبعين عذراً، فإن لم تجد له عذْراً فقل لعلَّ له عذراً لا أعرفه».

وعليكَ نفسَك، ودَع أمر العامّة. قال الشاعر:

ولا تُوغِلنَّ إذا ما سبَحْتَ ... فإنّ السلامة في السَّاحلِ

وقفْ عند حدّكَ، ولا تواقع حمى غيركَ، لاسيما حمى أحباب الله، فإنه يخشى منكَ سوءُ الخاتمة بذلكَ.

[الغرضُ الأساسيُّ من هذه العُجَالة]

والغرضُ الأساسي في تقديم هذه العُجالة، أن أنبّه أمثالي من الطلبة الذين لم يبلغوا أيَّ مقام من مقاماتِ الفحُول، ولم ينحطّوا إلى درجَة الحمقَى الجهَّال، فصاروا يلوكونَ أعراض الأقطابِ، ثم يلفظُونها بلا تفكيرٍ ولا روية، ويشنّون عليهم الغارةَ الشعواء، بلا تدبُّر ولا دراية، إذْ هم لم يذوقوا ما ذاقوا بل يتهافتون عليهم تهافُتَ الفراش على النّار فيحرقون أنفسَهم.

يـا ناطـحَ الجبـلِ العَـالي ليكْلمَـه ... أشـفِقْ علـى الرأسِ لا تشـفِقْ علـى الجبلِ

ولستُ أقصد في تقديمها الهجومَ على الذين استهوَتهم الشياطينُ فأمسوا ينعِقون في كل وادٍ ونادٍ بما لا يسمَعُ ولا يغني شيئاً، ويقولونَ في أولياء الله منكَراً من القَول وزُوراً، وقد افتروا به إثماً عظيماً، ودسَّ في قلوبهم العداوة والبغضاءَ، ونسُوا ما روى البيهقي في «الدلائل» عن النبي ﷺ قال: «سبابُ المسلمِ فسوقٌ، وأكل لحمِه من معصية الله»، الحديث. وما رواه البخاريُّ عن أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يرمي رجلٌ رجُلاً بالفسق أو الكفْر إلا ارتدتْ عليه إن لم يكُن صاحبُه كذلك». وما اتفق عليه الشيخان عن النبي ﷺ قال: «لعْنُ المؤمن كقتله». بل أدعُهم على حالهم، لأنهم رسخَتْ فيهم الضلالةُ، وطنّبت أوتادَها، ومن يضلل الله فما له من هاد.

لـو كلّ كلْـبٍ عـوَى ألقمتُـه حجَـراً ... لأصبـحَ الصخْـرُ مثقَـالاً بدينَـارِ

وإلى الله الكريم أمدّ أكفَّ التضرّع فأستمنحُه المعاونةَ والمعافاةَ، وأن ييسر لي طريقَ النجاح، وأن يحشُرني ووالدتي وأحبَابي في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحينَ وحسُن أولئك رفيقا. ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [الحشر: ١٠].

[الباعِثُ الأول]

فأقول: إن قطبنا وسيدَنا أبا بكر بن سالم الحسينيَّ أودع في قصيدته مكنوناتٍ وغوامضَ، بها هاج الجهلةُ وماجوا، وضلوا وأضَلّوا، وأقاموا دعاوى وأراجيفَ كسَرابٍ بقيعَة يحسبه الظمآنُ ماءً حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً.

والباعثُ الأول إلى جمعِ هذا الوجيز، هو الدفاعُ عن حرمة أحباب الله، فأكون قد قمتُ بالواجب في ذلكَ. لما أخرجه الترمذيُّ وحسّنه عن أبي الدرداء عن النبي ﷺ قال:

«من ردَّ عن عرْضِ أخيه بالغيبِ ردَّ الله عن وجهه النار يومَ القيامة». ولما رواهُ مسلمٌ وأبو داود والإمامُ أحمد أيضاً وغيرُهم عن أبي سعيد عن النبي ﷺ قال: «مَن رأى منكم منكراً ليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». وأيُّ منكرٍ أعظمُ من هتك حرماتهم، وتسفيه الأحلام من موالاتهم، وعن مودتهم، وإليك المقصودُ، وبالله التوفيق.

***

[شرح البيت الأول]

فأقول: قال الشيخ نفعنا الله به:

صفتْ لي حميّا خِلّي وأُسقيتُ من صَافِيها

الحمَيَّا: هنا اسمٌ من أسماء الخمْرِ، وكل ما خَامَر العقلَ، أي ستره، فهو خمرٌ. وحُميَّا الكأسِ: سَورتُها وحرارتُها. وعبّر عن القوّة الغضَبية، وأن الخمْرَ المذكورة في أقوالِ الصّوفية هي الخمرُ الحلال، وهي استتارُ العقْلِ بجلال الله تعالى، وعدم مشاهدة القلب غيره. وتواجُدُ الروحِ والجسد عند ذكْر اسمِه، كما أشار إليه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]. فأهل الملاهي سكِرُوا بالخمر الآثمة، فاندرجوا في سلك البهائم والمجانين، وانذَوت مشاعرُهم النفسانية، وماتت حواسُّهم الملكية، فأمسوا بها شيئاً ولا كشيءٍ، فهم كالأنعام بل هم أضَلّ. فيا عجَبي، كيف يسعَى في جنونٍ من عقَل! وهل يشربُ الخمر الحرامَ من له أدنى مسكةٍ من العقل؟ ولا لذةَ فيها إلا عدَمُ اللذة، وفاقِد الشيءِ لا يعطيه، فاجتنبوا الخمر فإنه مفتاح كل شر.

وأما أهلُ الله، وخواصُّ عبادِه، العارفون بالله، فسقُوا كأساً لا لغوٌ فيها ولا تأثيم، فسَرى فيهم نورُ الحق، ونطقُوا بروح القدُس، وتلك والله هي الرحيق المختومُ، ومزاجهُ من تسنيم، ختامه مسكٌ، وفي ذلك ليتنافس المتنافسون.

وأهلُ الله شربوها فثملوا، وتدفّقتْ منهم نفائسُ الغرائبِ ومكنونات الجواهر واللآلئ، وتجلّت قوة الحق في قلوبهم، فغاب عنهم الكونُ الآني، وغابوا عنها، وحضروا مقامَ الصدقِ فرأوا فيها ما لا عينٌ رأت ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشَر، خاضُوا بحار التقديس، فاستخرجوا درر الكمال، وعاينوا في ملكوت الله وملكه ما فوق مقدُورِ البشر، فكانوا كما قال إمامُ الأقطابِ، وأمير المؤمنين، سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله

وجهه: «لو كُشفَ الغطاءُ ما ازددت يقيناً». امتزج حبُّ الله بأبدانهم وأبشارِهم وأشعارهم، حتى ثبتَ فيهم وطبقّهم ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبّه فإذا أحببته كنت سمعَه الذي يسمعُ به، وبصَره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجلَه التي يمشي بها، وإن سألني أعطيته، وإن استعاذني لأعيذنّه».

وأنّ سيدنا الناظمَ قد صفتْ له خمر خلِّه، بمعنى طابت له الخمرُ والتذَّ بها حين احتساها. **والـخَلُّ**، بفتح الخاء: مصدَرُ خلَّ لحمُه يخلُّ خَلاً وخَلالاً صار في خلَلٍ، وذلك بالهزال. فكيف معْنَى قول سيدي إنه استأنسَ بصُورَة هُزالِه القوية. أي: أنه جعل للهُزال سَورةً وحرارةً أثَّر في جسده فلم يكُن إلا أن يرضَى بالهزال، ويفتخر به، وإن كان قوياً جداً. أو يكون المعنَى في **الخَلّ**: الخلُّ المنقلبُ من الخمر، فيكون في عباراتِه قلبٌ. أي: صفَا خلُّ خمرِي، بمعنى طهُر، إذ أنه كابد المشقّاتِ، وجاهد وثابرَ حتى جلا صدأ قلبِه فانعكسَ عليه نورُ الحقّ، ثم جنَى ثمر جدِّه طاهرةً، كما طهُرَت الخمر النجِسةُ فأمسَت خلاً طاهراً.

أو هو **الخِلّ**، بكسر الخاء: بمعنى الخليل، فيكون المقصودُ به هنا كما هو الظاهر: الله، أو النبيُّ ﷺ. وفي كلّ سواءً. إذ حب النبي ﷺ هو حبُّ الله، كما قال الله تعالى: ﴿**قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٣١].

يكون في عبارة الناظمِ استعارةٌ في الحميَّا من الوداد، أي: صفا له ودادُ خِلِّه، بجامعِ فُقدان الشعور في كل من الحميَّا والوداد. ثم أسقيَ من الخلّ الذي عنى به صافي تلكَ الحميَّا، أي ثم لذَّ له المناجاةُ، وطابَ له البقاءُ في مقام العبودية بعد قمع هوى نفسِه الأمارة بالسوء، فعادت نفساً مطمئنةً.

والإسقاءُ في اللغة أبلغُ من السقْي، لأن الإسقاء هو أن تجعلَ له ما يسقي منه ويشربُ. تقولُ: أسقيته نهراً، قال تعالى: ﴿**وَسَقَىٰهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا**﴾ [الإنسان: ٢١]، في

السَّقي. وقال في الإسقاء: ﴿وَأَسْقَيْنَٰكُم مَّآءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧]، وقال: ﴿فَأَسْقَيْنَٰكُمُوهُ﴾ [الحجر: ٢٢]، أي: جعلناه سقياكم.

والنفس إذا ارتشفت السُّقيا من عين الحقّ التي يتدفقُ منها المعارفُ والعلوم، فهي نفسٌ قطعت شوطاً واسعاً في الطاعاتِ، وهي التي ينادي لها منادي الفوزِ في الآخرة من حين تنتظر الجزاءَ الأوفى والرحمةَ الكبرى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً ۝٢٨ فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى ۝٢٩ وَٱدْخُلِى جَنَّتِى﴾ [الفجر: ٢٨ ـ ٣٠].

ومن مبادئ السعادةِ أن يكون شأنُك كلُّه في الله، وأن تلاحظَك العنايةُ التامة منذ نعومة أظفارك، كما هو الحالُ في كثير من خواصّ عباد الله. وأن يلقيَ الحبُّ الصادقُ الأكيد جِرانَه في قلب قلبك، فيضمّك قوله عليه الصلاة والسلام: «المرء مع من أحب»، رواه الشيخَان عن ابن مسعودٍ رضي الله عنه.

قال إمام العارفين سيدي عمر بن الفارض قدس الله روحه:

شربنـا عـلى ذكْـر الحبيـب مدامـةً　　　سكِرنا بها مـن قبـل أن يخلَـق الكرمُ

وقال أحد العارفين:

عرفـتُ هواهـا قبـلَ أن أعـرف الهـوَى　　　فصـادف قلبـاً خاليـاً فتمكنـا

وقلتُ في هذا المعنى:

شربـتُ الهـوى كأسـاً وأسـكرتُ قبلـه　　　ومـن عجـبٍ أني صحوتُ مـن الشّربِ

وسيدنا الناظمُ من الذين تحقّقت فيهم الولايةُ، واستحكمَ فيه أمرها، ولم يسعه إلا أن يبوح بأسرارها من غير ما إرادةٍ منه، بلسان طلقٍ ذلقٍ على رؤوس الموافقين والمعاندين، فحسِبه الغرُّ الساذج مجنُوناً! نعم، هو مجنونٌ إلا أنه مجنونٌ في الله، وهو ممن انطوى فيه ما رواه الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ: «أكثروا

ذكر الله حتى يقولوا مجنون». وما رواه الديلميُّ في «مسنده» عن عائشة عن رسول الله ﷺ: «من أحب شيئاً أكثر من ذكره».

وقال الشيخ سيدنا الناظم:

طَابَ اللقَا والمواصَلَةْ وصَحَّ لي كل ما أقُولْ
وذقتُ خمر الهوَى التي لا يجتنيها سوَى الفحُولْ

[شرح البيت الثاني]

قال الشيخ نفعنا الله به:

واقْبَل وثنّى يمْلِي علِيَّ الذي يعْليهَا

يقول الشيخُ يعلي الحميَّا ويرفعُ قدرها: والذي يجعلها عزيزةً صافيةً أقبلَ عليّ إقبالاً تاماً. والإقبالُ التامُّ يثمِرُ المكاشفاتِ، ويحقق السرَّ الساري في سجلات مكنونات الباري، ويلهم العبدَ الوفاء بالعهْدِ القديم. ومن صدْقِ الإقبالِ عدمُ الالتفات إلى اللذات، بل إلى مشاهدة الذات، وخطورُ مقام المناجاةِ. وهناك يتجلّى سر الطلبِ، ويتم نهاية الأرب، بل هناك عند المناجاة حبيبٌ ومحبوبٌ وما ثمَّ ثالثٌ.

قال إمام العاشقين سيدي عمر ابن الفارض رضي الله عنه:

ولقد خلوتُ مع الحبيبِ وبيننا سرٌّ أرقُّ من النسيمِ إذا سرَى
وأباحَ طرْفي نظرةً أمّلتُها وغدوتُ معروفاً وكنتُ منكّراً
فدهشتُ بين جمالِه وجلالِه وغدا لسانُ الحالِ عني مخبراً
فأدر لحاظَك في محاسِن وجهِه تلقَى جميع الحسْن فيه مصوَّرا
لو أنَّ كلّ الحسن يكمُل صورةً ورآه كانَ مهلّلاً ومكبِّرا

قال الشيخ: ثم ثنّى إقباله عليّ مرّةً بعد أخرى ليمليني. إما بفَتح حرف المضارعة، من مَلا يملا، غير مهموزةٍ، بمعنى عمَّر. فهو أقبل عليَّ وإليّ ليعمِّرني فأعيش عمراً طويلاً، ألتذّ في جنابه، وأتبجح بما أفاض عليّ من المواهب. وإمّا يُمْلي، بضم حرف المضارعة، فهو على معنيين: (١) معنى متَّع، فيكون أقبل إليَّ ليمتّعَني بطول بقائي تحت كنفه، فأستأنس به، وأستخلصَ له ودّي كما خلصني من ربقة الذلّ والهوان إلى ذروة العز الشامخ الباذخِ. (٢) ويمْلي بمعنى يمْهل، فيكونُ: وأقبل يمْهِلني لأتريثَ فلا أستعجل الأمر قبل أوانه، وأستَأني حتى يطمئن قلبي به، فلا أتضجر ولا أمل في طلب مرضاته، ثم لا أبوح بسره إلا بطريق التحدث بنعمة الله تعالى.

وقد يكون يُملي، من أملأ الكتاب يمليه إملاءً، أي: أقبل ثم ثنّى إقبالَه ليُمليَ عليَّ أوصافَه الحميدة. وقد كان يخبرني سرَّ تلك الحميَّا، وما هو الذي يرفع قدرها، وما الذي قدسها حتى كان الناس لا يعقلونها!

وعَليَّ: بمعنى عِلِّي بكسر العين، وهو العلوّ. فيكون: متَّعني محبوبي وأملي عليّ سرَّهُ حتى حققتُ علوَّ النشر الذي يعلّي تلك الحميَّا ويشرفها. أو: جعلني محبوبي أعمَّرُ طويلاً في علوِّ المكان الذي يعلي تلك الحميّا، وأعيش فيها عالي القدر عالي الجناب.

نعم هكذا يكون من أخذته الخمر الحلالُ، فيسكر بها، ويفقد شعوره الظاهرة بعد أن استحكم فيه الشعور الباطن، والحقيقة الحقة. وبعد أن اتصل به نورُ النور. والخمرُ الحلال من عنب الكَرْم اللدني، والكرمُ قلْبُ المؤمن، كما صح عن النبي ﷺ، فيما رواه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه.

قال مولانا وقدوتُنا العارف بالله سيدي عبد الله بن علوي الحداد:

أخذتْـهُ الـراح حتـى ... لـم تبـق فيـه فضلـة
راح أنـس راح قـدس ... ليسـت الـراح المضلـة

وهي الراحُ التي مالتْ بها الندماء، وولعوا بها، وتواجدوا بذكرها.

قلتُ:

الـــراح راحٌ ليـــسَ معناهَـــا كما يــــدري لهـــا غـــرٌّ ومـــن لا يعقِلُ
بل خمـــرةُ الإجـــلالِ ذاقتهَا الألى وبـــدَا بها السِّـــرُّ المصُـــون الأولُ
وإذا ســـمعتَ الخمْـــر في أقوالهـــم فهـــو الـــكلامُ بغيرهَـــا يتـــأوَّل
واخضَع لهم تعـــرفْ معاني خمرِهم فالاتصـــالُ بهـــم إذا لا يعضَـــلُ
وحديثهـــم متواتـــرٌ في سرهـــا يتـــذوقُ المعنـــى الرجـــالُ الكمَّلُ

[شرح البيت الثالث]

قال الشيخ رضي الله عنه:

ومـــنْ ذَا شَرِبَهـــا مثْلي؟ أنـــا قَبْـــل لا يصْفيهـــا

هنا تجد الشيخَ ينادي ويسألُ الأقران الذين يدَّعون أنهم رُزِقوا من تلك الحميَّا شيئاً، أو شاهدوا مثلما شاهدَ هو، **فيقُول**: من هذا الذي شربَ الحميا مثل ما شربتُ أنا؟ **فالجوابَ**: ليسَ، ولا أحدٌ شربَ خمراً تضاهيها، أو عرفَ سراً كما يعرفُ هو. إذ أنه يعرف حقيقة القرب وسر المناجاة، وهذه المعرفةُ صعبٌ مراقيها كما زلتّ الأقدام بها ولم يعلمها إلا الأقلونَ، وهم السلف الصالح المذكورون في قول النبي ﷺ الذي رواه الإمام أحمد والبخاري ومسلم: «لا تزال طائفةٌ من أمتي قائمةٌ بأمر الله لا يضرُّهم من خذَلهم ولا من خالفَهم حتى يأتي أمرُ الله وهو ظاهرونَ على الناس».

وقد تتعجّبُ حينما قلتُ إن السيدَ عرف سراً لا يعرفه سِواه، ولم أعنِ بذلك أنه وحدَه عارفٌ للأسرار، بل عنيتُ أن سر الله واحدٌ، ومداخله كثيرةٌ، كما يقول الشاعر:

عباراتنا شتّى وحسنُك واحِدٌ وكلٌّ إلى ذاكَ الجمالِ يشيرُ

والشيخ عرفَ ذلك السرَّ، وسبقه كثيرون ولحقه أمثالهم وأمثالهم، بل فيهم من [هو] أفضل منه، وأعلى درجةً منه، ولكنّ لسان الشكرِ يعبِّر بما فوق الخُبر، فكل ينطِقُ على حسب موقعِه في ذلك الحين. وهذا الكلامُ بهذا التعبير كلامٌ مشْحونٌ في كتبهم عند مدْحِ الكاملين والراسخينَ في العلم، فيقولون: لم أرَ مثله، أو أعلمُ من رأيتُ، أو يقولون: لم ير مثل نفسه، في أمثال ذلكَ، فليكفه الإشارةُ، والله أعلم.

ثم قال سيدنا الناظم نفعنا الله به: «أنا قبل لا يصفيها»، أي: أنا شربتُ الحميًا قبل أن ينقطع زمانها، لأني أخذتُها من ذويها. واصْفَى في اللغة: بمعنى انقطعَ. فيكون الناظمُ عدَّى اللازمَ ضرورةً. وأصفى أيضاً بمعنى: أخذَه كلَّه. فيكون المعنى: أنا شربتُ الحميًّا قبل أن يأخذها مثلي كلها. وأصفى بمعنى: أخْلَصَ. فيكون حينئذٍ: أنا شربتُها قبل أن يخلصَها لنفسه، فيختارها.

هذا هو المعنى المتبادِر في فهمي، ولا أدري إذا كانَ هناك معانٍ أُخَرُ غير هذه. وما ألذَّ خمرة أهل الهوى، وما أنعمَ شرابها، وحُقَّ لها أن يتنافسَ فيها المتنافسون.

قلتُ:

يـا سـائلي عـن كنْـهِ معنـى خمْرِهـمْ إذ كلّهُـم في قولـه لـم يعبَـثِ

والخمـرُ خـاءٌ ثـم ميـمٌ بعـده راء فخُـذْ تفسِـيرَها وتريَّـثِ

خـلّ العـذُول وبعـدَه مـلْ نحوَهـم رُمْ وصلَهـم جُنـحَ السـرَى لا تلبثِ

الخمـر سرٌ ظـاهِـر مكنونُـهُ والحـبّ عـذبٌ في عـذابٍ مجتثي

هـذِي الحقيقـةُ فاذْرِهـا أو لا فـدَعْ واقنَـعْ بجهْلِـك مبْعَـداً وتلـوَّثِ

[شرح البيت الرابع]

قال الشيخ رضي الله عنه:

أنــا قبْلَ قبْــلِ القَبْــلِ وبادَيــت عــلى هَالَيْهَــا

أنا شربت تلك الحميا قبل أن يأخُذَها الذي هو قبلي. و«قبْل» الأولى، ظرف مكان، ضدّ بعْدَ. ويقدَّر الفعْلُ قبله المتعلقُ به، كأخذتها، أو شربتها، أو أصفَيتُها. وبابُ الحذف واسعُ التقدير ما لم يكن فيه تعسّفٌ أو قلبُ معنى بلا مسوّغ، فافهم.

و«قبل» الثانية، بمعنى الأخذ.

و«القَبل» الثالثة: يدخل في معانٍ، (١) منها ما هو بمعنى قبلَ الأولى، فيكون التقدير حينئذٍ: أنا أخذت الخمر قبل أخذ النهي قبلي لها، وأن يجيء في بعض اللغة موصولاً كما هنا في هذا التقدير. (٢) والمعنى الثاني للقبل، هو: أن يكون القبلُ جمعاً لأقبل، بضم القاف في الجمع. وهو الذي في عينه قُبَل وهو إقبالُ سوادِ العين على الأنف، فيتحجَّر نظرُه الواسع. فيقدَّر: أنا أخذتُ الخمر قبلَ أخْذ الأقبل وأصحابه لها، لأن القبل ضعيفو الأبصار، وقد لا يرون إلا موارِنَ أنفُسِهم وخياشِيمَه، وأما من كان مستقيم النظر وحادَّه، وكلُّ مؤمن مستقيمُ البصر والبصيرة، فيرى ما لا يرون.

والقبل: سفح الجبل، وأول المنّ. وإذا أقبل قَبْلَكَ أقصد قَصْدَكَ.

والأقبل المذكُور، ليس بأقبل الحسّ، بل أقبل المعنى، الذي هو أقلبُ للأمور، وأقرب للخطأ منه إلى الصّواب. قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعۡمَى ٱلۡأَبۡصَٰرُ وَلَٰكِن تَعۡمَى ٱلۡقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]. وقال أيضاً: ﴿فَعُمِّيَتۡ عَلَيۡكُمۡ أَنُلۡزِمُكُمُوهَا وَأَنتُمۡ لَهَا كَٰرِهُونَ﴾ [هود: ٢٨]. فقلوبُ عباد الله مخابئ أنوارِ الله.

وإن كنتَ فطناً لبيباً فإليكَ هذه الآيَة، تجِدْ سرَّ ما أقولُ لك: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ

﴿زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [النور: ٣٥].

والمعنى الأخير لصدر البيت، هو: أنا عاينتُ سر الخمرِ قبل عيانِ القبْلِ له. وهذا العيانُ الذي لهجَ به الشيخُ هو المشَار إليه في قولِ النبي ﷺ الذي رواه الترمذيّ والطبراني عن ابن عمر رضي الله عنهما بسندٍ حسنٍ: «اتقُوا فراسَة المؤمن فإنه ينظر بنور الله».

وجملةُ القول: إنَّ الحميَّا المفتخَر بها في القصيدة هي رحمة الله لعباده، ورحمتُه وسِعَت كلّ شيء، قديماً وحديثاً. وخَصّ بها زيادةً من يشاءُ، فجودُه عمَّني كذلكَ، مع تأخّر وجُودي، لأن الله عالم بما كانَ وبما هو كائنٌ، فلا عبرة بسبْقِ الوجود ولا تأخّره. فالرحمةُ هي الرحمة، ولا نفاد لرحمته أبدَ الآبدين. قال الله تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩]. و: ﴿رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وأنه ﴿وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٨]، فهو ﴿يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه: ٧]، وأنه ﴿يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، و﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦].

وفي أقوال السادة الصوفية لوامحُ التقديس، وتتنوعُ عباراتهم بتنوع مواجيدهم، والأذواق واسعةٌ. وأهلُ الذوقِ يتفاوتون، ولا يقدحُ العباراتِ مقاماتُهم السنية ما دامت سائغةً في اللغة، أو في الإشارة المكنونة لديهم. قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوا وَّآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوا وَّآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوا وَّأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٩٣].

واعلَم أن الشقاوة والسعادة صفتانِ لازمتان متضادتان، إذا ثبتت إحداهُما على العبد انتفت الأخرى منه، فلا يكون العبدُ شقياً وسعيداً في آنٍ واحد. قال الشيخُ العلامة شمس الدين الرملي الأنصاري في شرح بيتي «الزبد»، هما:

وعلمُــه بمَــن يمــوتُ مؤمنــاً   فليــس يشـقَى بـل يكـونُ آمنـاً

إن الشقيَّ لشقيُّ الأزلِ وعكسُــه الســعيدُ لــم يُبــدَّلِ

أي: من علمَ الله تعالى موتَه مؤمناً فليس يشقَى، بل يكون سعيداً آمناً من عذابِ الكفار، وإن تقدم منه كفرٌ، وقد غفر له. ومن علم موتَه كافراً فيشقى، وإن تقدم منه إيمانٌ، وقد حبطَ عملُه. وقد قال الأشعريُّ: «إنه تبينَ أنه لم يكن إيماناً.

فالسعادةُ الموتُ على الإيمان، ويترتب عليها الخلودُ في الجنة. والشقاوةُ الموتُ على الكفر، ويترتب عليها الخلود في النار. قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ سُعِدُواْ فَفِي ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٨]. وقال الله تعالى: ﴿ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِي ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ [هود: ١٠٦ ـ ١٠٧].

ثم قال: «إن الشقيَّ من كتبه الله شقياً في الأزل لا في غيره والسعيد من كتبه الله سعيداً في الأزل لا في غيره وإن كلا منهما لا يبدل. إذ من كتبه في الأزل شقياً يستحيل أن ينقلب سعيداً، ومن كتبه في الأزل سعيداً يستحيل أن ينقلبَ شقياً.

بخلافِ المكتوب في غيره كاللوح المحفوظ. قال تعالى: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [الرعد: ٣٩]، أي: أصله. وهو العلم القديمُ الذي لا يغيَّر منه شيءٌ، كما قاله ابن عباس وغيرُه. وفي جامع الترمذي مرفوعاً: «فرغَ ربك من العباد فريق في الجنة وفريق في السعير».

وفي «عقائد النسفي» وغيرها: «إن السعيد قد يشقى، بأن يرتد بعد الإيمانِ، والعياذ بالله تعالى. والشقيّ قد يسعدُ، بأن يؤمن بعد الكفر. والتغييرُ يكون على السعادة والشقاوة، دون الإسعادِ والإشقاءِ، فإنهما من صفاته تعالى»، انتهى بلفظه.

وللإيمان علامات وشواهد مذكورة في أحاديث النبي ﷺ. منها: حديث العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «ذاق طعم الإيمان من رضي بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً»، رواه الإمام أحمدُ ومسلم.

ومنها: حديثُ أبي أمامةَ الباهلي الصحيحُ عن النبي ﷺ قال: «إذا سرتْك حسنتُك وساءتك سيئتُك فأنتَ مؤمن»، رواه الإمام أحمد في «مسنده»، وابن حبان في «صحيحه»، والضياء المقدسي في «مختارته»، وغيرهم. ومنها: حديثُ البراء عن النبي ﷺ قال: «إن أوثق عرى الإسلام أن تحب في الله وتبغض في الله»، رواه الإمام أحمد والبيهقيّ، وغيرهما. ومنها: حديثُ أنسٍ عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمِنُ أحدكُم حتى أكون أحبَّ إليه من والدِه وولده والناسِ أجمعين»، متفقٌ عليه.

وأحاديثُ علامات الإيمان كثيرةٌ جداً معروفة، وكذلك أحاديث ذكر النفاقِ والكُفر. فمن حديث آية النفَاق: حديثُ أبي هريرة رضي الله عنه المتفقُ عليه: «آية المنافق ثلاثٌ، إذا حدّث كذَب، وإذا وعد أخلَف، وإذا اؤتُمِن خان»، وغيره.

فاطلبه في مظانه، والله يتولى هُداكَ، آمين.

وسيدي أبو بكر بن سالم، نفعنا الله به، تنطبق عليه جميعُ أحاديثِ الإيمان، فلذا يكونُ مؤمناً كما هو ظاهرٌ، لأنه يحبُّ الله ورسوله، وأنه ظهَر فيه آياتٌ دالةٌ على صدقِ محبته لهما، وكمال متابعته والانقياد لهما. ومن كان كذلكَ، فقد يشاركُ الصالحين عندَ قسْمَة الرحمة، والقسمةُ عند الله قديمةٌ كقدمه، وليس لله البداءُ ومن اعتقد به فهو كُفرٌ.

وسيدي لا يرى أنه أفضَلُ من غيره، ولكن لسان غيبَة الحال يفارقُ لسانَ حضُور الحال. فحسّنْ ظنك بأولياء الله، ولأن تعتقد بأن فلاناً ولياً لما تراه من أعماله الصالحة، فتخطئ، لاسيما إذا كان هذا الفلانُ ميتاً؛ خيرٌ لك من أن تعتقِدَ خلاف ذلكَ.

روى البخاريُّ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا الأموات فإنهم قد أفضوا إلى ما قدّمُوا». وعن ابن مسعود رضي الله عنه: أنه أُتيَ برجُلٍ، فقيل له: هذا فلانٌ تقطر لحيته خمراً، فقال: إنا قد نُهينا عن التحسُّس، ولكن إن يظهر لنا شيءٌ نأخذه به، رواه أبو داود بإسنادٍ على شرط البخاري ومسلم.

[شرح قوله «باديت على هاليها»]

قال سيدي الشيخ رضي الله عنه: «بادَيت على هاليها». **بادَى**: بمعنى بارزَ وجاهرَ بالعداوة. **والهالي**: مقلوبُ الهائل، والهائلُ: المفْزِع. والهائلُ: الذي يصبُّ شيئاً. فالمعنى: بارزتُ بالعداوةِ على هائل الرحمة عنّي، ومفزعها ومشوّشها عني. أو المعنى: جاهرتُ بالعداوة على من صبَّ العداوةَ عليها، أي على الرحمة. وأرادَ أن يستلب مني استحقاقَ رحمة ربي. وقد يكونُ «باديتُ» بمعنى باعدتُ بالبادية، لينزل العذابُ على هَائلي عن الرحمة. وجملة القول: فمن رامَ أن يبْعِدني ويبارزني بالعداوة، فليبرز، ليعلمَ من أين تؤكَلُ الكتف. هيه! أبعْدَ التمكُّنِ، وبعْد المجاهداتِ وبذل الروح والنفس والنفيس؛ يجرؤُ عليَّ هائلٌ ظلماً وعدواناً، وينتهك حرمةَ الله عليّ.

وأي حرمَة أعظمُ من حرمة الدين، وحرمة الحب الصادق. فدَع النومَ يا جَهُول، واعرف قدرَ نفسِكَ. قال الإمام علي كرمَ الله وجهه: «لا تظنن بكلمة خرجَتْ من أحد سوءًا وأنت تجدُ لها في الخير محتملاً». وقال أيضاً رضي الله عنه: «هلك امرؤ لم يعرفْ قدرَه»، الله أعلم.

[شرح البيت الخامس]

قال الشيخ رضي الله عنه:

أنــا أعْطِيــتُ كُلَّ الفَضْــلِ تكــرَّمْ عـلــي بَارِيهَـا

يمكنُ أن يكونَ هذا البيتُ متعلقاً بالبيتِ الذي قبلَه. والتقدير: أن الله سبحانه وتعالى أعطاني كُلّ الفضل، وتكرم عليَّ به بارئ الأنام. وحذفَ الأنام وعوّض عنها الهاء المؤنَّثَةَ، لدلالة السياق عليها. وكان ذلك قبلَ أخْذ القَبلِ له، وقبل عيَان القبر للرَّحمة. أو أن الله سبحانَه لما رأى صدْقي في التخَلّق بأخلاق الرحمن، وطولَ التزامي له حينَ استحققتُ الرحمةَ، وصدقَ نيتي على جميع معاملتي؛ أعطَاني كُلّ الفضل والزيادة، إذ الفضلُ هو

الزيادة. ولا يعطي الزيادةَ إلا من أعطى الكمال والزيادة، أو الفضل لا يكون من محضِ كرم الله تعالى الذي يتكرّمُ على من يشاء.

و«باريها»: خالقُها، وحُذِفت الهمزة تحفيفاً، وهو لغةٌ جيدةٌ. وضمير «باريها» يعودُ على الرحمة، أو على الأنام، أو على النفس، أو على العطايا، أو الفضائل. والمعادُ إليه محذوفٌ، وباب الحذف واسعٌ، كما أسلفنا القول.

قال الله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [الجمعة: ٤]. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ٧٣]. وقال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ ۚ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ۖ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا﴾ [الفتح: ٢٩].

ولله الفضلُ والإفضالُ، بيده الخير وهو على كلّ شيء قَدير.

[شرح البيت السادس]

قال الشيخ رضي الله عنه:

أنـا المجْتَبـى بـين اَهْـلي   وشُـفّعْتُ فـي عَاصِيْهـا

لما أعطيتُ الفضلَ الذي تكرّم إليَّ الله به، أمسيتُ المجتبى المختارَ بين أهلي وقومي، وكلٌ أصبحوا يعرفون فضْلي عليهم، وتفوقي عليهم. أي: الشيخُ رضي الله عنه اعتزَّ بفَخْره الذي أعطاه إياه خالقُه، وصار يعَدّد ويذكر نعمة الله شكْراً لا كِبْراً وإعجاباً بنفسِه. قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]، وقال تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧]. وقال تعالى: ﴿مَّا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنتُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧].

روى البيهقيُّ بسند ضعيفٍ وله شواهدٌ، عن النعمان بن بشير مرفوعاً: «التحدثُ بنعمة الله شكرٌ، وتركها كفر»، الحديث. قال العزيزيُّ: «فيحسُن من الإنسان الثناءُ على

نفسِه، بذكر محاسنه في مواضع، وهي مستثناةٌ من الأصل الغالبِ، وهو أنّ الإنسان يهضِمُ نفسَه ولا يثني عليها. من ذلك: قصدُ التحدث بنعمة الله. ومنها: كونُه لا يعرَفُ، فيقصد نشْرَ العلم بالأخذ عنه»، اهـ.

وروى الإمامُ أحمد والترمذيُّ عن ثوبان عن النبي ﷺ قال: «ليتخذ أحدكم قلباً شاكراً»، الحديثَ. وروى عبدُ الرزاق عن قتادة مرسلاً: «من شُكْر النعمة إفشاؤُها».

وشُكر المنعِم واجبٌ شرعاً. ومن الشكر: ذكرُ المرء بعضَ ما امتاز به على أقرانه، إرغاماً لحاسديه، وليس ذلك من الكبر في شيءٍ. قال الشيخ عبد الكريم الجيلي: «واعلم أن التكبر عن الله بالله محمودٌ، وما ورد في ذمِّ الكبر فإنما هو التكبر على الله، فافهَم موضع الحمْدِ من الذم»، اهـ. فهذا داود وسليمان يقولان: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [النمل: ١٥]، ثم قال سليمان: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ١٦].

وهذا سيدُ البشر على ما رواه الترمذي عن العباس رضي الله عنه يقول: «أنا خيرُهم نفساً وخيرهم بيتاً». وروى البيهقيّ في كتاب «دلائل النبوة» عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «أنا خيرُكم نسَباً وخيركُم أباً»، وهو حديثٌ صحيح. وروى الطبراني في «الكبير» عن أبي سعيد الخدْريّ رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا أعربُ العرب». وروى مسلمٌ وأبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة».

والأحاديثُ على هذا المنوال كثيرة لا تحصَى. وعلى هذه الطريقة سار سيدُنا الناظمُ شكْراً لله وتعديداً لنعم الله عليه، وقد أصابَ كما هو واضحٌ، فاعلم.

[معنى قوله: «وشفعت في عاصيها»]

ثم قال الشيخُ رضي الله عنه: «وشُفّعتُ في عاصيها». أي: أنني جعلتُ شافعاً في أهلي. والشفاعةُ ثابتةٌ في الكتاب والسنةِ وإجماع أهل الحق، وإن أنكرها المعاندونَ.

فمنها: قوله تعالى: ﴿لَّا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِندَ الرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾ [مريم: ٨٧]. فمن اتخذَ العهدَ يملك الشفاعةَ، على مفهوم الآية. وقوله تعالى: ﴿مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ١٨٦].

ومن الأحاديث: ما رواه ابنُ منيع متواتراً عن زيد بن الأرقم، وبضعة عشر من الصحابة رضي الله عنهم عن النبي ﷺ قال: «شفاعتي يوم القيامة حقٌّ فمن لم يؤمن بها لم يكن من أهلها». وروى ابن ماجه بسندٍ حسَنٍ عن عثمان ذي النورين رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «يشفع الله يومَ القيامة ثلاثةٌ: الأنبياء، ثم العلماء، ثم الشهداء». وما وراه الإمام أحمد بسندٍ صحيحٍ عن أبي الجدعان: «ليدخلن الجنة بشفاعة رجُلٍ من أمتي أكثر من بني تميم». وأحاديث الشفاعة كثيرةٌ متظاهرةٌ متضافرة.

والشفاعةُ أنواعٌ، فأرجو، أعني الشيخ، أن أفوزَ بشفاعته ﷺ أولاً، فأدخل الجنة، ثمّ إذا أذن لكُلّ من يدخل الجنة أن يشفع فيمن أراده، فهناك أكونُ مشفَّعاً في عاصي قومي. وحقيقةُ الشفاعة للمذنبينَ المتلوثين الخطَّائينَ، كما رواه الإمام أحمد عن عمر الفاروق رضي الله عنه عن النبي ﷺ بإسنادٍ رجالُه رجالُ الصحيح، فافهم العبارة ترشَدْ.

[شرح البيتِ السّابع]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

أنـا شـيـخُ أهْـل الوصْـلِ   تكـرَّمْ عـلَـي والِيهَـا

والشيخُ في اللغة: من طعَن في السن، ثم أطلق اصطلاحاً على من كانَ فاضلاً ولو صبياً، فهو مجازٌ. باعتبار أنّ من طعن في السن يعَظَّم، رحمةً وشفقةً به، فشُبّه من بلغَ مرتبة أهل الفضل به، بجامع استحقاق التعظيم في كلّ، على جهة الاستعارةِ التصريحية، ثم إنه صار حقيقةً عُرفيةً في ذلكَ، فافهم. قال السخاويُّ: «وأول من أطلقَ عليه شيخُ الإسلام الصديقُ، رضي الله عنه»، اهـ السجَاعي.

وسيدنا الناظمُ تحقق فيه المنزلتان معاً، ومرتبة الشيخُوخة في كل أنواعِها الكمالية مطمحُ أنظارِ السُلاَّك والمريدين. قال سيدي العلامة الحبيب أحمد بن أبي بكر بن سميط قدس الله روحه في كتابه «منهل الورَّاد»، ما نصّه، ملخصاً:

تتِمةٌ

ينبغي معرفة شيءٍ من مصطلحات القوم، لاسيما رائد السلوك. فمن اصطلاحهم: (مقام الفَرْقِ والجمع)، **فالجمعُ**: هو الاستغراقُ في شهودِ عظَمة الله وصفات جماله وجلاله. **والفَرقُ**: مأخوذٌ من تفرقته في الكائنات مع الحقِّ. ولابدَّ للعبد من كل المقامين.

(الغَيبةُ والحضُور)، **فالغَيبةُ**: غيبةُ القلبِ عن علمِ ما يجري من أحوال الخلقِ. **والحضُور**: عكس الغيبة. فعلَى حسَبِ غيبته عن الخلق يكون حضُوره بالحقِّ.

(المحو والصحو)، **فالصحْو**: رجوع إلى الإحساس بعد الغيبة مطلقاً. **والمحْوُ**: رفعُ أوصاف العادة بغيرها. **والإثباتُ**: إقامة أحكام العبادة.

(**الوصلُ**): تلذّذُ القلب بشهود الحقِّ بعد زوال الحجُب الظلمانية والنورانية.

(الشرب والذوق): هو ما يجدونه من ثمراتُ التجلي، ونتائج الكشوفات. والوارِد في أول ذلك الذوقُ، ثم الشربُ، ثم الري. (الستر والتجلي): **والتجلي**، هو ما ينكشف للقلوب من أنوار الغيوب. **والسّتْر**: غطاءٌ للعوام عن الانكشاف»، اهـ.

وذكَر اصطلاحاتٍ كثيرةً ثم قال: «وهذه اصطلاحاتٌ معانيها ذوقية لا تعلم إلا بالذّوقِ، والعبارةُ عنها لا تفيد شيئاً». وأخيراً ذكَر بيت سيدي القطب الحبيب عبد الله الحدّاد نفعنا الله وبهم جميعاً:

وسلّمْ لأهل الله في كُلّ مشْكلٍ … لديكَ، لديهم واضِحٌ بالأدلّةِ

قلتُ: وفي الصوفية مراتبُ متفاوتةٌ كالأبدالِ والأوتاد، والأقطاب، وأهل الدَّرك،

والنقباء، والنجباء، والأصفياء، ومشيخةِ المقاماتِ التي ذكَرها العلامة ابن سميط. والقطبُ الغوث، يصِلُ إلى كل هذه المراتب من شدّ ساعِد الجدِّ وشمّر. وترك الفانيةَ وأقبل على الباقية، قال الله تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص: ٨٣].

وقد تكرمَ والي المراتبِ كلّها، ووالي المقاماتِ ومالكها ومانحها، وهو الله، على سيدنا الناظم بمرتبة شيخ الوصل، وهي مرتبةٌ جليلة. وهي إرشادُ أهل السلوك إلى التلذُّذ بالحقّ، وشهود ربوبيته في مخلوقاته، وقام سيدي بما استُحمِل حقّ القيام، فرضيَ الله عنه.

[شرح البيتِ الثامن]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

أنا أعْزِل أنا الّلي وَلِّي ... وأنَا شيخُها وقَاضِيها

يقولُ: أنا أعزِل من أراهُ لا يستحقّ من أيّ مرتبة شيئاً، وأنا الذي أولي المرتبةَ مستحقَّها، وأنا كذلك شيخُ الولاية وقاضيها. أو أنا شيخُ المراتب والمقاماتِ وقاضيها، وتلكَ التي بلغها سيدنا الناظمُ رتبةٌ قصوَى عزت على غير أمثاله من الخلق، فتأدب معهم، واعرِفْ حقوقهم، لا سيما حقوق السادة الصوفية، وحقّ انتقام الله منكَ لهم كما هو منكَ بمرأى ومسمعٍ.

واعلَم أنه لا غروَ أن يصرح امرؤٌ ـ كما أسلفنا القولَ ـ بشيءٍ من مناقبه على طريق تشجيع غيره، أو رؤيته لنفسه أهليةً منها، فالنبي ﷺ كما ثبت في «الصحيحين» يقولُ للذين استشفعوا منه الشفاعة الكبرى: «أنا لها، أنا لها». وهذا يوسف عليه الصلاة والسلام يقول: ﴿ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ [يوسف: ٥٥]. وهذا إبراهيم عليه السلام يقول لآزر: ﴿ يَٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ﴾ [مريم: ٤٣]. وكم من السلف

الصالح الذين شادُوا بمناقبهم وذكروها مراتٍ، وهذا مستفاضٌ بينهم. وسيدنا الناظم هنا قد اقتدَى بهم، فهل عليه لومٌ إذا اقتدى. فأنصِفْ إذا كنت محقاً يا أخي.

[شرح البيتِ التاسع]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

أنــا حتْــفٌ لأهْــلِ العَــذْلِ ... ونَــارُ الجحِيــم أطْفيهَــا

أنا سببُ موتِ أهل العذلِ الذين يعذلونني ويقولون فيَّ سُوءًا، ويظنّون بي ما أنا منه بريءٌ، هلكوا كثيرٌ منهم، واقتصَّ الله منهم لي. وأنا أطفئ نارَ مكِيدتهم الّتي تشبهُ نار الجحيم في قوة الإضرار، فنارُهم لا تضرني، لأن ناصري وحافظي ربي الذي يقولُ سبحانه: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم: ٤٧].

والحقُّ أن رمُوزَ قصيدتي لا تتّضحُ لهم، لشمولها على معانٍ وجواهر، هُم منها بعيدون، فجعلوا ينسبونَني تارةً إلى التكبر، وتارة إلى التزكية، وأنا بما أعني به أعرَفُ منهم. فكأنّ كالباحِث عن حتفه بظُلفِه، وكنت سبباً لحتْفِهم وهلاكهم، فمن أراد الحتْفَ الحسيَّ أو المعنوي فليقع في أعراض السادة الكُمّل بلسانه البذيء.

قال مولانا سيدي علي الحبشي في قصيدته الحمينية:

لا تعذلُوهــم إذا بَاسْرارِهــمْ يشْـطَحونْ ... ماذا عجَبْ فالعجَب من الذي يعجبُونْ

وقال أيضاً:

ومـن عَذلنـا وحاربنَـا عسَـى لـه بليّـةْ ... يـصيــبْ عــقْـلــه خــبَــلْ

عليشْ تعـذِلْ ونحنُ في الطريق السَّويةْ ... مــا قــطّ نــعــرِف حيَــلْ

إن الله سبحانه وتعالى أعطَى أولياءه دعوةً مستجابة يدعُون بها متى شاءوا، إلا أن الإمامَ مسلماً روى في «صحيحه» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لا ينبغي لصديق

أن يكونَ لعاناً». وروى أيضاً عن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يكون اللعّانون شفعاءَ ولا شهداءَ يوم القيامة». فلذا تراهم يتركُونَ عذّالهم وأعداءَهم وشأنهم، لا يدعون عليهم حتى ينتقمَ الله منهم، والله أعلم بمصلحة عبده من نفسه.

قال الشاعر:

وإذا أراد الله نشــر فَضيلَـةٍ طُويـتْ أتـاحَ لهـا لسَـان حسُـودِ

وقال الأمير قابوس قديماً:

وفي البســيطة أشــجَارٌ منوّعــةٌ وليـس يُرجَـمُ إلا مـا لهـا ثمَـرُ
وفي السـماء نجـومٌ لا عـدادَ لهـا وليسَ يخسفُ إلا الشمس والقمَرُ
أما ترى البحر يعلو فوقَه جيفٌ ويسـتقر بأقصَـى قعْـرِه الـدّررُ

وقال أبو الأسود الدؤلي رضي الله عنه:

حسَـدوا الفتى إذ لم ينالوا سَـعْيه فالقَـومُ أعـداءٌ لـه وخصُـومُ
كضَـرائِر الحسـناء قلْنَ لوجهها حسَـداً وبغْيـاً إنـه لدَميـمُ

قال سيدي عبد الرحيم البرعي قدس الله روحه:

والمـرءُ مـا عـاشَ لا يخلـو عـن الحسَـدِ

وقال الشاعر:

اصـبِرْ علـى مضَـضِ الحسُـو دِ فَـإنّ صـبرك قاتِلُـهْ
النّـارُ تـأكلُ بعْضَهـا إن لـم تجِـدْ مـا تأكلُـهْ

وفي المثل السائر: «الحسود لا يسود».

أخي، هل رأيت ظالماً أشبهَ بالمظلوم من الحاسد! كما قال سيدنا عمر بن عبد العزيز

رضي الله عنه: أنه يسخَطُ ويتمنى زوال نعمة الله على عباده، ويبيتُ حزيناً كَمَداً إذا رأى واحِداً من الخلق أعزَّ منه في أي شيء كان.

روى أبو داود عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «إياكم والحسَد، فإن الحسد يأكلُ الحسنات كما تأكل النار الحطبَ والعشب». وروى الترمذيُّ عن الزبير رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دبَّ إليكُم داء الأمم قبلكم، الحسدُ والبغضاء». وماذا يغني الحسَدُ عما أراده المولى، إلا تأكُل قلب الحاسد وموتُه ظالماً ملعوناً، والله أعلم.

وكذلك الشيخُ كان يطفئ نارَ الفتنةِ حتى لا تشتعِلَ، كما هو معروفٌ في سيرته.

[شرح البيتِ العاشر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

وسَـيفي ودرْعـي مجْـلي واعقِّـبْ عـلى تَاليهَـا

يعني: أن له سيفاً مصلتاً ودرعاً سابغاً، كل واحد منهما مجلّي ومظهِر، ومزيل وكاشِف مكْرَ الماكرين، وكيد الكائدين، وسوف يكبتُ بهما رقابَ الأعداء.

ويعني الشيخُ رضي الله عنه بالسيفِ القلمَ، والدرعِ العلمَ. أو: يعني بها اللسانَ الذّلقَ المفلقَ، والقلبَ الطاهر النقيَّ، اللذَين بصِفَاتهما وإخلاصهما يفوزُ من فاز. وإذا ملك أحدٌ زمامهما فإنه يجلي ويكشفُ أيَّ دسيسة ترادُ به. فاملِكْ لسانكَ، ونقِّ قلبكَ؛ تنْصَر على أعدائكَ، وتنجو من هوة الحسد والشر.

واعلم، أن الناس لو كانوا يعرفون كُنهَ ألفاظ الرجال، وفقه عباراتهم، لخلعوا نعالَ الكبر والحسد، ودخلوا حضَراتهم وهم فائزون، ولكن كما قالَ الإمام عليٌّ كرم الله وجه: «الناس أعداءٌ لما جهلوا». وقالتِ العربُ: لو أنصفَ الناسُ لاستراح القاضي.

ثم قال الشيخُ رضي الله عنه: «واعقِّب على تاليها»، وأنا سوفَ أجازي جزاءً حسناً كل تالي قصيدتي وقارئها، أو: أنا أتابعُ شكري الدائم على كل من تبعَني في حالي وتأدّبَ

معنا، ثم عرف أهدافنا وأغراضنا من أقوالنا وأفعالنا، واقتدى بنا وعمِلَ بعملنا، ثم يتجلى له الحقُّ، ويرتقي الدرجاتِ العلى، ويفوز بالنعيم المقيم، بإذن الله الولي الكبير.

[شرح البيتِ الحادي عشَر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

ومـن كَان ينكِـر فعْـلي   يجـرّب وأنـا حَاميهَـا

يتحدّى الشيخُ رضي الله عنه أعداءَه، ويطلبُ منهم إذا كانوا ينكرون فعله وقولَه أن يجربوا، هل هُو كما يقول؟ وهل هو هُو في حركاته وسكناته!

نعم، إن سيدنا الناظمَ لصادقٌ لا يغشّ ولا يموّه ولا يداهن، بل سائر على الصراط المستقيم. قال الشيخ: وأنا حامي قصيدتي، أو حامي أقوالي وأعمالي عن التخبّط خبطَ عشواء، بل هذه سبيلي أدعوا إلى الله على بصيرةٍ. وكيف لا يكون هكذا، والعلماء ورثةُ الأنبياء، والرجال يتكلمون بمثل هذه الكلمات الصريحة الغامضة، والعبارات البعيدة المرمَى الغامقة، حالَ غيبتهم عن هذا الكون، وشهُودِهم في مقعَد صدقٍ، ومقام الإجلال الأكبر، ويعفَى عن أمثالهم إذا قالُوا ما قالوا في تلك الحالةِ، ولا يلامون.

وجاءت رواية «يخرّب»، **والتخريبُ**: حالةٌ في الملامية معرُوفة، يتستَّرون بها عن أحوالهم السنية، خوف الاغْتِرار أو الافتِتان، وكما سيأتي آنفاً. قال سيدي الشيخُ يوسف النبهاني قدس الله روحه في «جواهر البحار» ما نصه: «وإياك أن تسيء الظنَّ بأحدٍ من أولياء الله تعالى بسببِ ما تراه في بعضِ عبَاراتهم من المخالفة لذلكَ، بحسب الظّاهر، فقد أودعوا تلكَ العبارات أسراراً، وقصدوا بها معانيَ شريفةً لا يدركها أمثالنا، رضي الله عنهم وأرضاهم، ونفعنا ببركاتهم في الدنيا والآخرة»، اهـ.

فحَسِّنْ ظنك.

وسئلَ المحدّثُ الكبير، والفقيه الشهير، شيخ الشيوخ، ابنُ حجر الهيتميُّ في «فتاويه

الحديثية»، رضي الله عنه ونفع الله به، بما لفظه: «ما الذي يجاب به عمّا وقع من شطَحاتِ الأولياء؟ السؤال...».

فأجابَ ما مضمونه: «ما وقع لهم من الشطحات، للأئمة الحكماء العارفينَ، الذين حماهم الله، أجوبةٌ مسكتة، وتحقيقات مبهتة، لا يهتدي إليها إلا الموفّقون، ولا يعرض عنها إلا المخذُولون، فاحذر أن تكون ممن يتحسَّى كأس سُمّ الإنكار، وبادر إلى السَّلامة من غضب الله ومحاربته، فقد قال عليه السلام: «من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب»، قال الأئمَّة: ولم ينصب الله تعالى المحاربةَ لأحدٍ من العصاة إلا للمنكرينَ على أوليائه، وآكلي الربا». ثم قال:

«**أحَدُ تلك المسالك**: أن تلك الكلماتِ حكايةٌ عن حضْرة الحقِّ عند غلبَة التجوّز، وغير ذلك من مقامات المحبة والعبودية، يبسَطُ لهم العذر، ويرفع عنهم الإصر.

ثانيها: أن ذلكَ وقع منهم في حالة الغيبة والسكر، الناشِئَين عن الفناء في المحبة، والشهود لموارد الأحوال، ألا ترى أن بعضَ الهمُوم إذا وردَت على القلبِ أذهلتهُ وأذهبت تمييزَه لشدة تمكّنها منه، واستغراقه في فكره! هذا في الأمور السافِلة، فكيفَ بواردات الحقّ على القلوبِ، فإن ذلك لا يبقي في القلب شُعوراً ولا تمييزاً، بل يصير صاحبه كالسكْرانِ الثمِل، فحينئذٍ ينطقُ بما رسَخ في خلَده قبلُ، ويرجع بطبعه قهراً عليه إلى مكانٍ يلحظُه فيه، ويعول عليه، لكن بعباراتٍ لا يقصد بها ما يوهمه ظاهرها، وعلى سكر نشأ عن سببٍ جائزٍ، فصاحبُه غير مكلفٍ.

ثالثها: إنهم قد يؤمَرون تعريفاً لجاهل أو شكراً وتحدثاً بنعمة الله كما وقع للشيخ عبد القادر أنه قال: «قدمي هذه على رقبة كل ولي لله تعالى»، فأجابه في تلك الساعةِ أولياءُ الدنيا، القصة بطولها.

رابعها: إن الشطحَ قد يكون فيه نفعٌ للخلق، وقد عرفوا ذلك بإلهامٍ أو كشفٍ أو خطابٍ، أو نحوها من وجوه التعريفات.

خامسُها: ظهورُ المراد من اللفظِ، وإن أشكل ظاهرُه.

سادسُها: الإشارةُ إلى الخلافة عن الحقّ بالإذن له في التصرف.

سابعُها: قصدُ التخريب، وهو ما يقع للملامتية، وهم قومٌ طابت نفوسهم مع الله، فلا يودون أن أحداً يطلع على أعمالهم غيرَه، وإذا رأى أحدٌ منهم أن أحداً اعتقد فيه خرَّبَ، أي ارتكبَ ما يذم به ظاهره، من فعل أو قول»، اهـ ملخصاً. وسيدنا الناظم لم يتعدَّ أحدَ هذه المسالك في جميع قصيدتِه، فدقّقْ تعرف، وتأمل تسلم، اهـ.

[شرح البيتِ الثاني عشَر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

أنـا بازُهَـا والشـهْبِ   وأنـا للمثَـاني أقْربهَـا

البازُ في اللغة: نوعٌ من الصقور معروفٌ. والشهب: بضم الشّين وسكون الهاء جمعُ أشهب، وهو جيشٌ قوي شديد. والشَّهْب: بفتح الشين وسكون الهاء: الجبل أعلاه ثلجٌ. والشُهُب: بضمتين جمع شهاب، وهو الكوكب أو السِّنان. فالشيخُ بازُ عشيرتِه أو قومه، أو بازُ البلاغة في التعبير عن الغوامض، والبازُ أطير طائرٍ كما قال الشاعر:

فكـم طيـبٍ يفُـوح ولا كمِسْـكٍ   وكـم طَـير يطـيرُ ولا كبـازِ

وبازُ القوم أعلاهُم وأشرفُهم وأطمحهم للمعالي، كما كان سيدنا الناظم في قومه وعصره. وهو أيضاً وإن كان وحيداً في سلُوكه، فهو كجَمْع جيوشٍ عوارمٍ قواضِم، واعتبار نفسِه وحدَها جيوشاً كما مدَح الله تعالى خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠]. فالشيخُ جيشٌ يهزم الجيوشَ.

أو هو جبلٌ صعْبُ المرتقى، لا يرتَقيه خبٌ أو مغرورٌ إلا سقط إلى حضيضِه، ولكن من رقاهُ يجد في ذروته ثلجاً لا كثلج الماءِ، بل ثلج الصدور والأدواء، يستقي منه

المهمومُون والمعترفون. وفيه شفاءٌ للمؤمنين. أو هو شهُبٌ متعددّة ترمي أعداءَه فتدمغُهم فإذا هم صرعى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية. قال الشاعر:

أتهـزأ بالدّعـاءِ وتزدَرِيـه ... ومـا يدريـكَ مـا فعَـلُ الدعـاءُ
سـهامُ الليـلِ لا تخطـئ ... ولكـن لهـا أمـدٌ وللأمـد انقضاءُ

فسيدُنا قدس الله روحَه جيشٌ يهزم المعارضينَ، وجبلٌ لا يتحطم بسيول المعتدين، وشهابٌ يقذَفُ به على الظالمين، فافهم الإشارةَ، وخذ حذركَ، وسلم لهم الأمْرَ تسْعَد.

[معنى قوله: «وأنا للمثَاني أقْرِيها»]

قال الشيخُ رضي الله عنه: «وأنا للمثاني أقريها»، أي: هو يقرئُ الخلق المثانيَ والقرآن العظيم، ويشرح لهم علومَه، ويبرز خرائدَه، لأنه أوتي فهماً فيه لم يعْطَه إلا أمثالُه.

قال الإمام سيدي علي الحبشي رضي الله عنه في مدْحِ القرآن العظيم:

كتـابُ الله أنزلـه تعَـالى ... عـلى خير الـورَى الهـادي الدَّليـلِ
كتـابٌ جامـعٌ للعلـمِ يهْـدِي ... إلى التقـوَى ويشْـفي للعَليـلِ
هـو الوحيُ الـذي قـد كان يوحَى ... إلى الهـادي عـلَى يـد جِبْرَئِيـلِ
تنزلُـه عـلى العلمـاء بـاقٍ ... لديهـم وهـو منقطِـعُ النـزولِ

والقرآن العظيم نبراسُ الشريعة، وينبوع المعارف كلها. وقد وردت أحاديث دالةٌ على فضْلِه وفضل قراءتِه ومدارسته، منها: عن أبي أمامة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «اقرؤُوا القرآنَ فإنه يأتي شفيعاً لأصحابه»، رواه مسلم. وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيركم من تعلمَ القرآن وعلمه»، رواه البخاري.

وعن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الذي ليس في جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرِب»، رواه الترمذيُّ، وقال حديث حسن صحيح. وعنه أيضاً قال: قال رسول

الله ﷺ: «اقرأ عليَّ القرآن»، فقلتُ: يا رسول الله، أأقرأ عليكَ وعليك أنزل؟ قال: «إني أحبُّ أن أسمعَه من غيري»، فقرأتُ عليه سورة النساء، حتى جئت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]. قال: «حسبكَ الآن»، فالتفتُّ إليه، فإذا عيناه تذرفان، متفق عليه.

[شرح البيتِ الثالثَ عشَر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

وعَــينُ الحقيقَــةْ عَينِــي وأشربُ مــن سَــاقِيهَا

العينُ: تجيء في اللغة لمعانٍ، منها: العينُ الجارحة، فيكون المعنى: رؤيتي هي الرؤيةُ للحقيقة الكبرى. ومنها: المراعي للشيء، فيكونُ المعنى: ومراعاتي مراعاة للحقيقة، أي: أنا أراعى حقيقةً، وأحافظُ عليها، فكل شغلي مراعاةٌ للحقيقة، وكل وقتي وجدّي حفظٌ للحقيقة. ومنها: أن عين الله الراعية عيني، أي: أن الحديث القدسيَّ الذي ذكرناه في (الباب الأول)، وهو: «وبصَره الذي يبصر به»، فتحقّق في الشيخِ تحققاً لا ريبةَ فيه، لصدقِ انقياده لأوامره، واجتنابه لنواهيه.

ومنها: عين الماء، أي: أن الشيخ منبعُه منبعُ الحقيقة ومخرجها. ومنها: العين بمعنى الأفضَل، أي: أن الشيخ قدس الله روحه أفضَلُ أهل الحقيقة في عصره. وتستعار العين للميل في الميزان، أي: أن الميلَ الأصوبَ إلى الحقّ ميلُ سيدنا الناظم.

وفي العين معانٍ كلها يرجع إلى ما ذكرنا، فافهم.

و«**الحقيقة**»: رؤيةُ الشيء كما هو. أو: ثبوتُ الشيء كما يعني. أو: كون الأمر هو هُوَ. أو: تحقّقُ الشيء على وجهٍ به أريدَ.

[معنى قوله: «وأشرب من ساقيها»]

قال الشيخ رضي الله عنه: «وأشربُ من ساقيها»، بعد أن كانت نفسي الحقيقةَ الذاتية،

وبعد أن أمسيتُ عينَ الحقيقة، وسيد الطريقَة؛ فاعلم بأني أشربُ كُلّ ذلك، وآخذُ كل ذلكَ، وأستمنح كل ذلك من ساقي الحقيقة، وهو رسول الله ﷺ.

قال الإمام البوصيري رضي الله عنه:

فــاقَ النبيــين في خَلْــقٍ وفي خلُــقٍ ... ولــم يدانــوه في علــمٍ ولا كَــرمِ
وكلهــم مــن رسُــول الله ملتمــسٌ ... غرْفــاً مــن البحْـر أو رشـفاً مـن الدّيَـمِ
وواقفُــون لديــه عنــد حدِّهــم ... مـن نقْطَـة العلـمِ أو من شـكْلةِ الحكمِ

فإذا كان هذا حالُ الأنبياء مع سيدهم، فكيف حالنا معه ﷺ؟ فيجِبُ أن يكون اتصالنا به قوياً، ولا اتصال أقوى من التعلُّقِ بحبل ورثة الأنبياءِ، وهم العلماءُ العاملونَ، الذين شربوا العلم والتقوى من منهل النبي ﷺ العذبِ حتى ارتووا، فافهم الإشارةَ.

[شرح البيتِ الرابعَ عشَر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

وفخْــرُ الوجُــود فخْــري ... أبي بكْــر لــي يحِمِيهَــا

صدْرُ هذا البيت يقدَّر بتقديراتٍ كلّها سائغةٌ، منها: جميعُ الفخر الذي في الخلقِ فخْري، لأني منهم، ففَخْرُهم فخري. ومنها: كلّ فخْري وكلّ تقدُّسِي فخرٌ للوجود. ومنها: كلّ ما هو في الوجود مفتخَرٌ به فأنا أفتخِرُ به. ومنها: إذا افتخر بشيء من سَوابقهم فأنا أفتخِرُ بسابقتي الحقَّة، وبسبق مستمرٍّ لي إلى المعالي، وكل حزب بما لديهم فرحون، ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾ [الإسراء: ٨٤].

قال هذا سيدنا الناظمُ وهو في تجَلي جبروتِ الله، وتجلبُبِ رَحَموته ومشاهدة ملكوته، وهو غائبٌ عن الكون والسِّوَى، حاضرٌ ذاتياً وروحياً في حسِّ مقام القطبية الكبرى ومعناها، وبهذا صار فخراً لهذا الوجود، ومفزعاً لكل مسترشدٍ، وحامياً لواءَ أهل

الشهود، وإن الله جلَّ شأنه يزيدُ في الخلق ما يشاءُ، والله أعلم حيثُ يجعل رسالته، والله ذو الفضل العظيم.

[معنى قوله: «أبو بكر لي يحميها»]

قال الشيخ رضي الله عنه: «أبوبكر لي يحميها». فأبو بكرٍ: بدلٌ من فخري، أو خبرُ مبتدأٍ محذوفٍ تقديرُه: واسْمي، واضحٌ، وهو أبوبكر الذي يحمي الوجود عن الانحْراف. أو: أحمي الولايةَ عن أن يمسَّها أعداؤها بسوءٍ، أو ينالوها بمكروه، فيهوي في هوة عميقة. هذا وقد باح سيدُنا الناظم من أول القصيدة إلى هنا وإلى آخرها بمراتبِ المختلفَة، وبأسراره، وبحميَّاته، ثم أخيراً هنا باح باسمِه، لا إعجاباً بنفسه بل ليبديَ نعم الله عليه شكْراً ووفاءً بالحمد اللائق، وإظهاراً للعلم اللدني الذي عناهُ جَدُّه الأعظم الإمامُ السَّجاد زينُ العابدين، عليه وعلى آباءه السلام، إذ يقول:

إني لأكتـمُ مـن علمِـي جَواهـره ... كـي لا يـرَى ذاكَ ذو جهـل فيفتتنـا
يـا ربَّ جوهَـر علـمٍ لـو أبـوحُ بـه ... لقيـلَ لي أنـت ممـن يعبـدُ الوثَنـا
ولاستَحلَّ رجـالٌ مسلمونَ دمـي ... يـرونَ أقبـح مـا يأتونَـه حسَـنا

وهو الذي عناه الإمام الشافعيُّ رضي الله عنه إذ يقولُ في بعض قصيدته:

سـأكتمُ علمِي عن ذو الجهْل طَاقتي ... ولا أنثُـر الـدرَّ النفيـسَ عـلى الغنـمْ
فمـن منـحَ الجهَّال علمـاً أضاعَـه ... ومـن منـعَ المستَوجِبين فقـد ظلَـمْ

وهو الذي ذكره الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه أنه لو باحَ به لقطع حلقُومه، كما هو ثابتٌ في «الصحيحين» قصته.

قال الإمام ابن حجر الهيتَمي: «**والحاصل**، أن العبرةَ بالمقصود والنيات، وما اشتملت عليه القلوبُ، أو أكنّته الضمائر، فربَّ سامعٍ قبيحاً صرَفه إلى الحسَن، وعكسه. فيعامل كلّ أحدٍ بحسَب نيته وقصده.

وينبغي للإنسان حيث أمكنَه عدمُ الانتقادِ على السادة الصوفية، نفعنا الله بمعارفهم، وأفاض علينا بواسطة محبتنا لهم ما أفاض على خواصهم، ونظمنا في سلكِ أتباعهم، ومنَّ علينا بسوابغ عوارفهم، أن يسلِّمَ لهم أحوالهم ما وجَد لهم محملاً صحيحاً يخرِجُهم عن ارتكاب المحرَّم. وقد شاهدنا من بالغ في الانتقادِ عليهم مع نوعِ تعصُّبٍ فابتلاه الله بالانحطاط عن مرتبته، وأزال عنه عوائد لطفه وأسرار حضرته، ثم أذاقه الهوانَ والذلة، ورده إلى أسفل سافلين، وابتلاه الله بكل علةٍ ومحنةٍ. فنعوذ بك اللهُمّ من هذه القواصم المرهَفات، والبواتر المهلكات، ونسألك أن تنظمنا في سلكهم القوي المتين، وأن تمنّ علينا بما مننْتَ عليهم حتى نكون من العارفين، والأئمة المجتهدين، إنك على كل شيء قدير، وبالإجابة جدير»، اهـ.

[شرح البيتِ الخامسَ عشَر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

فقــد طــابَ فيهــا أصْـلي   أنــا للفــروع اغْذِيهَــا

أي: إذا علمْتَ كل ذلكَ فاعلَم، بأنه طاب في الوجود، أو في الحقيقة، أو في الحميّا، أصلي. فيكونُ سيدنا الناظم طيّباً فيه ثلاثُ خصالٍ: النسب، والطريقة، والحقيقة.

[الخصلة الأولى]

فأما نسبهُ فشريفٌ صحيحٌ، متصل بالنبي ﷺ. فهو: أبو بكر بن سالم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عبد اللهبن عبد الرحمن السقاف بن محمد بن علوي بن سيدنا الفقيه المقدم محمد بن علي بن محمد صاحب مرباط بن علي خالع قسم بن علوي بن محمد بن علوي بن عبيد الله بن المهاجِر إلى الله أحمد بن عيسى بن محمد النقيب بن علي العريضي بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين السبط ابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ

أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ [إبراهيم: ٢٥]. قال ابن حجَر الهيتمي في «الدر المنضود»: نعم، أجمعوا على دخول أولاد فاطمةَ رضي الله عنها في ذريته ﷺ خصوصيةً لهم، بشرف هذا الأصل العظيم، والمحتد الكريم».

قال صاحب «شمس الظهيرة»: «وأما خصُوص نسب ساداتنا آل باعلوي الأشراف الحسَينيين السنِّيين، فإن نسبهم في غاية الوضُوح والاشتهَار كالشّمْس في رابعة النهار، ولم يزل محفوظ الأصول والفصول. يتلقّاه الأبناء والأحفادُ عن الآباء والأجداد، بالتواتر والاستفاضة والسماع والقبول. وقد اعتنى به كثير من الأئمّة المطلعين، والثقات الورعين، وألّفُوا فيه مؤلفاتٍ كثيرةَ، موجودة مشهورة»، اهـ.

وقال ابن تيمية: «إن لآل محمد حقاً لا يشاركهم فيه غيرهم»، وقال: «إنهم يستحقّون من المحبة والولاء ما لا يستحقه غيرهم»، اهـ. وقال ابن حجر الهيتمي: «وينبغي لكل أحدٍ أن تكون له الغيرةُ على النسبِ الشريف وضبطه، حتى لا ينتسبَ إليه ﷺ أحدٌ إلا بحق»، اهـ.

قلتُ: وأما ثبوتُ النسب الشريف لآل باعلوي تاريخياً وعقلياً ونقلياً، فأمر لا يشك فيه إلا حاسد مكابر. قال أبو الطيب المتنبي:

وليسَ يصحُّ في الأذهَان شيءٌ ... إذا احتاجَ النهارُ إلى دليلِ

وإليكَ جملةً ملخّصةً، توضح لك كيف ثبتَ نسبُهم، وكيف اتصلوا بالبضعة النبوية. أما رسولُ الله ﷺ وفاطمة الزهراء والحسنان وأبوهما الحيدر الكرار صلى الله عليه وعليهم وسلّمَ، فلا حاجة إلى تعريفهم.

وزين العابدين بن الحسين: فيزعم الجهال أنه قتل بكربلاءَ، وذلك مخالفةٌ للواقعِ والتاريخ. فأما الإمام البخاري ومسلم وأهل السنن الأربعة والأئمة الأربعة

وأبو الفرج الأصبهاني، وأصحابُ التواريخ يثبتونَ بقاءه بعد أبيه، وكذلك يزيد بن معاويةَ وعبد الملك بن مروان، وهشام بن عبد الملك، وعمر بن عبد العزيز. فليبحث كل ذلك في مظانه.

وأما محمد الباقر: فأجمع الأمَّة الإسلاميَّة بأنه ابن زين العابدين وكذلك أجمع الأمَّة الإسلاميَّة أن جعفرَ الصادق ابن محمد الباقر ونقيب الأشرافِ، وأعلم من في عصره، ولا حاجة إلى إطالة الكلام. وقد ولد الباقرُ قبَيل وقعة كرباء بسنتين.

وأما علي العريضي: فقد روى عنه وأثبتَه البزيُّ والجهضميُّ والأوسيّ والترمذيّ، والامام أحمد. وذكره الذهبيُّ وابنُ حجر، وأثنى عليه اليافعي.

وعيسى بن محمد النقيب بن علي بن علي بن جعفر: فقد كان نقيب الأشراف بالبصرة واستولى ابنه محمد على أقاليم العراق ذكر ذلك ابن عِنَبة وغيره.

الإمام المهاجر أحمد بن عيسى بن محمد النقيب: أثبته الأزوَرقانيُّ، ومؤلف «زهْر الرياض»، وجماعة كبيرة جداً من النسابين على اختلاف طبقاتهم وبلدانهم. وأثبت نسبه إثباتاً قاطعاً للنزاع حفيده ابن جديد إمام قاضي البصرة وأمام حضارم كثيرة فاتضح الأمر. وأما بعد الإمام أحمد المهاجر إلى الله بن عيسى، فثبوتهم متواتراً تواتراً ليس فيه أدنى ريبة، إلا لمن ابتلاه الله ببغض أهل البيت، وأراد أن يهضم حقَّهم الواجب لهم على كل مسلم. وإن شئت معرفة ذلك التواتُر فعليكَ بالجواهر السنية في نسب العترة الحسينية للإمام السكران، و«المشرع الروي» للإمام الشلي، و«تحفة اللبيب» لابن سميط، وغيرها من الكتب المتداولة المعروفة، تجد ما يشفي غليلَك، ويوضح لك الحقّ، فافهم.

قال العلامة النبهاني في «رياض الجنة»: «إن ساداتنا آل باعلوي رضي الله عنهم قد أجمعت الأمَّة المحمدية على أنهم من أصحِّ أهل بيت النبوة نسباً، وأثبتهم حسباً، وأكثرهم علماً وعملاً، وكلهم من أهل السنة على مذهب إمامنا الشافعي، رضي الله عنه

مع كثرتهم، إلى درجة لا يقلون فيها عن مائة ألفِ إنسان، ومع مجاورتهم إلى الزيدية ومع تفرقهم في البلادِ، لم يفارق أحدٌ منهم مذهبَه، حمايةً من الله لهم.

أما علماؤهم وأولياءهم؛ فهم أكثر وأنورُ من نجوم السماء». إلى أن قال: «ولا يمتري في صحة نسبهم، وكثرة فضائلهم ومزاياهم التي تميزوا بها عن الأنام، ببركة جدهم عليهم الصلاة والسلام؛ إلا من قلَّ حظه في الإسلام»، اهـ ملخصاً.

[الخصلة الثانية]

وأما طريقةُ سيدنا الناظم؛ فعلويةٌ صوفية. رواها عن الإمام الشيخ شهاب الدين بن عبد الرحمن ومن في طبقته، عن أبيه الإمام عبد الرحمن بن علي، والشيخ أبي بكر العيدروس ومن في طبقتهما، عن الإمام الشيخ عبد الله العيدروس وأخيه الإمام علي بن أبي بكر ومن في طبقتهما، عن أبيهما الإمام الشيخ أبي بكر السكران وعمها الإمام الشيخ عمر المحضار ومن في طبقتهما، عن أبيهما الشيخ عبد الرحمن السقاف ومن في طبقته، عن أبيه الإمام الشيخ محمد بن مولى الدويلة ومن في طبقته، عن الإمامين الشيخين عبد الله وعلي ابني علوي بن الفقيه ومن في طبقتهما، عن أبيهما الإمام الشيخ علوي بن الفقيه المقدم، ثم هي متصِلة بالآباء إلى رسول الله ﷺ إلى جبريل إلى الله عزَّ وجلّ، كما هو معروف.

وطريقة العلويين مجموعةٌ في كتب الإمام الغزالي، والإمام القشيري، والإمام أبي طالب المكي. وتوازي الطريقةَ الشاذلية في أغلب شئونها.

وطريقتهم متأثرةٌ بالسماع، ويحيونَ حفلات المولد النبوي، وحضرات أقطابهم، ويزورون قبور صلحائهم، ويتوسلون بهم في حاجاتهم، ويقومون في شتَّى مهام الدِّين الحنيفي، من تبليغ وتأليف ووعظٍ، وكثرة العبادات، وطول المراقبة لله، وصدق المحبة للرسول ﷺ، وشدّة التعظيم لرجال الله. ولهم في كل ذلك أناشيد تشدى بالطارات والمراوِيس واليراعات، ويتغنّون بأشعار الأقطاب الصالحينَ، ويتواجدون

بذلكَ، وتحصل لهم المكاشفاتُ والكراماتُ والفراسات الصائبة. ولهم رؤيا صادقةٌ، واجتماعاتٌ بالنبي ﷺ يقظة ومناماً، واجتماعاتٌ برجال الغيب.

وهي طريقةٌ، كما قال سيدنا القطب الحبشي رضي الله عنه:

أبٌ يتلقى عن أبيهِ وهكذا فيالكَ من آباء كِرام وأجْدادِ

وها هي محكمةُ الإسنادِ، مسلسلة الرواية إلى النبي ﷺ وإلى كبار الصوفية، كأبي مدْيَن المغربي، وسيد الطائفة الجنيد، وغيرهما. فهذا لبُّ طريقهم، ومن أراد شرحاً وافياً لطريقهم، فعليه بكتبهم كالعلم النبراس للإمام العطاس، و«البرقة المشيقة» و«عقود الألماس»، وغيرها.

[الخصلة الثالثة]

وأما أصليةُ سيدنا الناظم في الحقيقة؛ فأمرٌ ثابت بالنقلِ وبالمكاشفة، يعرفه أصحابه، فسلم الأمر لأهله.

***

وحَسُن هنا أن نقدّم ترجمةً وجيزة لحياة سيدنا الناظم، فيعرفه الخاص والعام.

حياة سيدنا الناظم قدس الله سره وروحه آمين

ولد رحمه الله تعالى ونفع به بتريم الغناء، مقر السادة العلوية، يوم السبت ثالثَ عشر جمادى الآخرة سنة ٩١٩هـ، ونشأ بها، واشتغل بطلب العلم على مشايخ عصره. وتفنن في سائر العلوم، وصحب المشايخ الكبار، ولبس منهم الخرقة. منهم: الشيخ الكبير عمر باشيبان، والفقيه عبد الله بن محمد بن سهل باقشير، والشيخ عمر بامخرمة، والعارف بالله أبو محمد معروف بن عبد الله الشبامي الدوعني.

ولزم العزلة والخلوةَ، وسلك طريق المجاهدة والرياضة والعبادة، ثم ظهرت له الحقائقُ، وانتفع به الخلائق. منهم أولاده، والسيد أحمد الحبشي صاحب الشعب، والسيد

عبد الرحمن الجفري صاحب تريس، والسيد محمد بن علوي صاحب المقيروبات، والسيد عبد الرحمن البيض صاحب الشحر، والسيد يوسف الفاسي المغربي صاحب مريمة، والعلامة محمد باجمال صاحب الغرفة.

وصنف كتباً في الطريقة والحقيقة، منها:

١ ـ كتابه «معراج الأرواح إلى منهج الوضاح».

٢ ـ وكتاب «فتح باب المواهب وبغية مطلب الطالب»، وهو مجلد كبير.

٣ ـ وكتاب «معارج التوحيد».

٤ ـ وكتاب «مفتاح السرائر».

وله كلامٌ حسنٌ في التصوفِ والحكم. وله شعرٌ فائقٌ في الحكم والحقائق، وغيرها.

وكانت أموالُه مبذولة للمحتاجين. وكان عظيمَ الحلم، حسن الخلق، كامل التواضع، محباً للخمُول. وكان يجتمع بالخضر وإلياس عليهما السلام.

وكان يكاشف بالمغيبات والخواطر، وتظهر منه الخوارق.

وأثنى عليه أكابر الفضلاء نثراً ونظماً. منهم: الشيخ عبد القادر الفاكهي، والعلامة ابن جار الله الحنفي، والسيد الجليل عبد الرحمن البيض صاحب الشحر باعلوي، وعمر الحباني، ومحمد الكثيري. وانتقل رحمه الله تعالى ليلة الأحد لثلاث بقين من شهر ذي الحجة سنة ٩٩٣هـ وقبره بعينات يزار»، اهـ ما نقلته من «شرح العينية» للحبشي، و«المشرع الروي» للشلي، بمعناه.

[معنى قوله: «أنا للفروع أغذيها»]

قال الشيخ رضي الله عنه: «أنا للفرُوع أغذيها». **فالفروع هنا: إما مصدرُ فرع يفرَع فروعاً، بمعنى**: صعَد الجبل. أي أنا أغذي الوجُود معارفي وعلومي، طالباً لهم الفرعَ والصعُودَ إلى الكمال. وإما: جمعُ الفَرْع، ضِدّ الأصل، فيكون المعنى: أنا

أغـذي معارفـي الفـروعَ والأولادَ الذين ينتسبُون إلـى ولادَةٍ أو ولاءٍ أو مشـيخة.

وكم بدا من فروع سيدنا الناظمِ رجالٌ عظامٌ، وجهَابذةٌ كرام، آلافا مؤلفةً سارُوا على خطته، وسلكوا منهاجه، وتغذوا بأنواره وحقائقِه، ولو أردنا استقصاءَ عددهم وذكر مناقبهم لطالَ بنا الكلامُ.

ونحـن فـي السـواحل نشـاهِد فروعَـه كيـف زكَتْ، وكيـف تنمـو، ونشـاهد مآثرهم وخدماتهـم الجليلـة للدِّيـن الحنيفـي. نذكـر منهـم الآن: الإمـام السـيد منصـب بـن عبد الرحمـن الحسـيني ت ١٣٤٠هـ، ومـن شـاكله من العلمـاء والأولياء، وشـهرة هذا السـيد فينـا تغنـي عـن تعريفـه. وكم مـن أمثالـه أتـوا ويأتـون، ولله الحمد، وكلهـم انتفعـوا بغذاء جدهـم ونفعـوا غيرهـم ببركتـه، نفعنـا الله به وبهـم آمين.

[شرحِ البيتِ السادِسَ عشَر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

وراقَـتْ حميًّـا قُرْبـي   وإنـي لهَـا سَـانِيها

راقَ في اللغة، بمعنى صفَا. أي: صفَت حميًّا قربي من الحقيقة واتصَالي بها. وبمعنى أعجبَ وسُرَّ، أي: أعجب الوجُود والخلقَ حميًّا قربي، وسرّ اتصالي، وعين حقيقتي. وبمعنى لمعَ، أي: ازدَهتْ ولمعت حميًّا اقترابي من نور الحق، وإني للحميًّا ساني فروعي، وأهل عصري، والخلق والوجود. وسنَى، بمعنى سقَى، أي: أنا أسقي تلك الحميًّا الرائقَة أهل عَصري والوجودَ، وأسقى فرُوعي من بابِ أولى. وسنَى بمعنى فتحَ، أي: أنا أفتح سِرَّ تلك الحميا لكُل أولئك.

وسيدنا الناظم يسقي الوجود، ويفتح أبواب الأسرار القدسية لجميع الوجود، ويلاحظهم، ويطلب لهم السعادةَ، لأنه أبٌ لهم حقيقةً ومجازاً. قال مولانا الحبشي رضي

الله عنه: «الأبُ له عينٌ بالرحمة تراعي العيال»، وسرُّ الآباء في الأبناء، ومن سعادة المرء أن يشبه أباه، فإليك الإشارةُ ترشَد وتسعد.

وسَقَى: بمعنى سقَى الزرُوع وروَّاها.

[شرح البيتِ السابعَ عشَر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

إذا أفلتْ شمُوسُ الكُلّ　　　أنــا شمسُــها ضَاحِيهــا

أفلَ بمعنى غابَ. والشمسُ هنا بمعنى شيء يهتدَى به، ويُبعَث شعاعها لمحتاج إليه. فإذا غابت كلّ الشمُوسِ، وكان الوجود في حاجة إلى من يرشدهم لغيابِ علمائه إما بالموت أو بالاستتار، فأنا حينئذ شمْسُ الوجود. أو: أنا شمسُ فرُوعِي لا أغيبُ ولا آفل، بل مشرقٌ في كل حين وزمان، لإرشَاد فروعي ومن تعلق بي حسياً أو معنوياً. وإذا أفلت شمسٌ من شموسِهم لاضمحلال نورِهَا، أو عدم أهلية الشروق، فأنا أمدّها وأرسل نوراً إليها كيلا تأفُل وتبقَى مضيئة.

وضَحَى، بمعنى برزَ للشمس. وأنا مستعدٌ في البروز لأيّ شمسٍ إذا أشرقت، أي: أنا آخذُ علمي هذا من كلِّ من هو أهلٌ. وبمعنى أصابته الشمْسُ، أي: وإن كل شمسٍ مضيئة تصيبُني حرارتها وقوتها النافعةُ، فأنا يصيبني الآنَ كلّ بركة ولي، ما دام ولياً، وكل فائدةٍ من عالمٍ ما دام عالماً، لأني لا أستنكِفُ أن أكون لا أعرِفُ، أو لم أبلغ ما لم أبلغ، لأن فوقَ كل ذي علم عليم.

والمعنى: أنا في استطاعتي إذا عُدمَ العلماء أو قلّوا، أن أرِثَهم فأرشِد، وإذا وجدوا فأنا مستعِدٌ في الخضوع لهم، والتعلم منهم، وكل كفّة عندي سواء. وهذا تواضع من الشيخ لو أمعنت النظَر، وإن كان على صورة الترفّع.

[شرح البيتِ الثامنَ عشَر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

أنـا عرشُـها والكُـرْسي وأنـا للسّـماءِ بانيهـا

أي: وأنا عرشُ فروعي ومعتمَدُهم، وأنا عرش الوجود ومستندهم. بمعنى: أنّ كل فرعٍ من فروعي، وكل من هو موجُودٌ في عصري يقعُد عليَّ وأحمله، ويؤذيني وأعفو عنه، ويتقرب إليَّ وأحسن إليه. ولا يفتر عزْمي نقدُ الناقِد، ولا يتعَاظمُني مدحُ المادح، فهدفي واحدٌ، لا ألتفتُ إلى مدحٍ أو هجاء، ولا أنصِبُ العداوة لأحدٍ، بل أنا أحملهُم وأتصبر معهم على اختلاف أذواقهم ومشاربهم. وأنا كرسيُّهم فليجلس عليَّ من شاء، لأن من أراد عظيماً خاطَر بعظمته.

قال الشاعر:

يجـود بالنفـس إن ضـن الجـواد بها والجـود بالنفس أقصى غايـة الجودِ

وقال سيدي ابنُ الفارض قدس الله سره:

إذا جَـاد أقـوامٌ بمـالٍ رأيتهـم يجـودُون بـالأرواحِ منهم بـلا بُخلِ

لعمـري هم العشّـاق عنـدي حقيقةً على الجدّ والباقُـون منهم على الهزلِ

وقد يكون الكرسيُّ بمعنى العلم، أي: أنا عرشُ العلم، ونفسي مبتغاها العلم، آخذُ الحكمة والعلمَ من أي جهة أتَى، ولا أنظر من أي وعاء خرجَ، بل أبذل وسعي في تحصيله وحفْظِه على ظهر الغيب، وبثه على أهل الوجود وعلى فروعي.

قال الشاعر:

ألا في سـبيل المجْـدِ مـا أنـا فاعـلٌ عفـافٌ وإقـدامٌ وعلـمٌ ونائـلُ

وقال الشاعر:

ليس في الكتبِ والدفاترِ علمٌ   إنما العلمُ في صدُور الرجَالِ

فصَدر المرء عرشُ علمِه، ومجدُه وسعادتُه.

[معنى قوله: «وأَنا للسماءْ بانيها»]

وقول سيدنا الناظم: «وأنا للسماءْ بانيها». المقصُود بالسَّماء: الرفعةُ. وبناؤها طلبها، فهو سماءُ المجدِ، وسماء العلم، لا يكِلُّ ولا يسأمُ، بل يثابر عليه ليلَه ونهاره. وفي الكلام استعارةٌ. قلتُ:

الهمـة القعسَـاءُ تعلـو بي وهَـا   أَنَـا فائـقٌ بالهمّـة الأترابَـا
وأنـا غيـورٌ دائِـبٌ لا أنثنـي   أكببْـتُ في طلـب العُـلا إكبابَـا

وقال أبو الطيب المتنبي:

ولسـتُ أبـالي بعد إدراكـي العُلا   أكانَ تراثـاً مـا تنَاولـتُ أم كسْـبا

وقال أيضاً:

عـلى قـدر أهـل العـزْمِ تـأتي العزائـمُ   وتـأتي عـلى قـدْر الكـرامِ الكرائـمُ
وتعظُـم في عـينِ الصَّغـير صغـيرةٌ   وتصغُـر في عـينِ العظَـام العظائـمُ

وقال الشاعر:

لا يعتلي المجْدَ من لم يركَب الخطَرا   ولا ينـالُ العـلا مـن قـدم الحـذَرا

وسيدنا الناظم كما عبر عنه الشاعر:

نفسُ عصَام سـودَتْ عصَاما   وعلمتْـهُ الكـرَّ والإقْدامَـا

وقال الشاعر:

وإذا كانـت النفـوسُ كبـاراً تعبَـتْ في مرادِهـا الأجسَـادُ

وأيضاً هو داخلٌ في ضمن قَول الشاعر:

وإني وإنْ كنتُ الأخيرَ زمانُـه لآتٍ بمـا لـم تستَطِعهُ الأوائـلُ

والكلام في بابِ العلم، وفي تسابق السلف والخلف إليه كثيرٌ.

وفي هذا القدر كفايةٌ، والله أعلم.

[شرح البيتِ التاسعَ عشَر]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

شُفْ أهلَ الكِسَا بالفَضْلِ وجبريـلُ لـي رَاويهَـا

شف بمعنى: انظُر. لأني منهم وفيهم. وجبريل الأمينُ هو الذي روَى الفضائلَ من ربّ العالمين، وأبلغها إلى النبيِّ ﷺ. وأبلغها النبيُّ ﷺ مبينةً تبياناً تاماً، ومشروحة شرحاً وافياً إلى الثقلين. ورسولُ الله ﷺ كما مدحه ربُّه في كتابه العزيز إذ يقولُ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ﴾ [النجم: ٣ ـ ٥].

وشديدُ القوى جبريل. فالنبيُّ في كل أحواله وأقوالِه يتبعُ الوحيَ، وينطق به، فكلُّ ما جاء به رسول الله ﷺ حقٌّ لا مريةَ منه، ولا ريبة فيه. وما هو فضلٌ لأهلِ الكساءِ فهو فضلٌ لذريتهم إلى يوم القيامة. قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ﴾ [الطور: ٢١].

[من فضائل أهل الكساء]

وإليكَ بعْضَ ما جاء في القرآن الكريم وفي الحديث الشريف، وفي أشعار العلماءِ من فضائلهم ومدائحهم، نبذاً يسيرةً، تكفي القلب السليم والفكر المستقيم.

[أ] أما في القرآن، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣]. قال الإمام ابن جرير الطبريُّ: «إنما يريد الله ليذهبَ عنكم السوء والفحشاءَ يا أهل محمدٍ، ويطهّركُم من الدنس الذي يكون في معاصي الله تطهيراً». وقال أبو سعيد الخدري رضي الله عنه، وجماعةٌ من التابعين، منهم قتادةُ، ومجاهدٌ، وغيرهم: إنهم هنا أهلُ العَباءِ. ونقل ابن عطية عن الجمهور: أنهم عليٌّ وفاطمةُ والحسنان، وهو الصحيحُ. للحديثِ الذي رواه ابن [أبي] شيبةَ، وأحمدُ، ومسلمٌ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، والحاكمُ، عن عائشة رضي الله عنها قالت: خرج النبي ﷺ غداةً وعليه مرطٌ مرحّلٌ من شعَر أسود، فجاء الحسن والحسينُ فأدخلهما معَه، ثم جاءت فاطمةُ فأدخلها معه، ثم جاء علي فأدخله معهم. ثم قال: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٣].

ولهذا الحديث أسانيد مختلفةٌ عن أم سلمة رضي الله عنها، وعن واثلة بن الأسقع، وعن أبي سعيد، وفي رواياتهم بعضُ اختلافٍ يسير يمكنالجمعُ فيه.

وقال تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰٓ﴾ [الضحى: ٥]. نقل ابن جرير، والقرطبيّ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، أنه قالَ في تفسير هذه الآية: «رضا محمد ﷺ أن لا يدخُل أحدٌ من أهل بيته النارَ». وله أدلةٌ من السنة كثيرة.

وقال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [الشورى: ٢٣]. ذكر ابن عباس رضي الله عنهما: أنهم قالوا: يا رسول الله، من قرابتك هؤلاء الذين وجبتْ علينا مودتهم؟ قال: علي، وفاطمةُ، وولدهما. وذكر طاووسُ، وسعيد بن جبير، وعمرو بن شعيب: أن المرادَ في هذه الآية: قربى رسول الله ﷺ.

وذكر ابن عباس رضي الله عنهما في ﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً﴾ [الشورى: ٢٣]. أنه قال: المودّةُ لآل محمد. وقال تعالى: ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْـُٔولُونَ﴾ [الصافات: ٢٤]. ذكر بعض المفسرين: عن مودّة آل محمد ﷺ. وقد ذكر ابن حجر الهيتميُّ في «الصواعق المحرقة»،

وأصحابُ كتب المناقبِ آياتٍ تعزّزُ مقام أهل البيت، رضوان الله عليهم، فاطلبها. منها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ﴾ [الصافات: ١٣٠]. أخرج ابن أبي حاتم، والطبراني، وابن مردويه، عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نحن آل محمد، آل ياسين».

[ب] وأما الأحاديث:

فمنها: ما أخرجه الإمام أحمد، والترمذي وصححه، والنسائي، والحاكمُ، عن المطّلب بن ربيعةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «والله لا يدخل لا يدخل قلب امرئ مسلم ايمانٌ حتى يحبكم لله ولقرابتي». **ومنها:** ما أخرجه مسلمٌ، وأحمد، والترمذي، والنسائي، وعبد بن حميد، عن زيد بن الأرقم رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: «أنا تاركٌ فيكم الثقلين». ثم قال: «أذكركم الله في أهل بيتي». **ومنها:** ما أخرجه الترمذيُّ وحسنه، والطبراني، عن ابن عباس رضي الله عنهما قالَ: قال رسول الله ﷺ: «أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمه، وأحبوني لحب الله، وأحبوا أهل بيتي لحبي».

وأخرج ابن حبانَ في «صحيحه»، والحاكم، عن أبي سعيد رضي الله عنهقال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسه بيده لا يبغضنا أهل البيت رجل إلا أدخله الله النار». وأحاديثُ فضل أهل البيت كثيرةٌ جداً، وفيما ذكرنا كفايةٌ، والله أعلم.

[ج] وأما في الأشعار:

فغُررٌ من مدائحهم. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه:

آلُ النبـــيِّ ذريعَتـــي   وهـــمُ إليـــه وســـيلَتي
أرجُـو بهـم أعطَـى غـداً   بيـدي اليمـينِ صَحيفتـي

وقال أيضاً رضي الله عنه:

يـا أهـل بيـتِ رسـول الله حبكُـم   فـرضٌ مـن الله في القـرآن أنزلـهُ

يكفيكـمُ مـن عظيـمِ القـدْر أنكمُ   مـن لـم يصـلِّ عليكُم لا صـلاة لهُ

وقال الفرزدق في مدْح الإمام السجّاد زين العابدين عليه السلام:

مـن معشَر حبُّهـم ديـنٌ وبغضُهـم   كفـرٌ وقربهـم منجّـى ومعتصَـم
إن عُـدّ أهـل التقَـى كانـوا أئمتهـم   أو قيل: مَنْ خير أهل الأرض؟ قيلَ همُ

وقال سيدي البرعي قدس الله روحه:

آل النبـيّ وأبنـاءُ الـوصيّ فهـم   في العـرْضِ والأرض سـاداتٌ وأخيـارُ
قـومٌ سـمَوا برسـول الله مرتبـةً   فـكلّ أفعالهـم في المجْـد آثـارُ
سبعُ المثـاني ثنـاءٌ يمدَحُـون بـه   ومـدحُ غيرهـم سـجعٌ وأشـعارُ
فهـم ثمـالي ومنهـم نـصْرتي وغنَـى   فقـري وقبلـةُ قصـدي أينمـا سَـاروا

وقال سيدي عبد الله الحداد رضي الله عنه:

فهـمُ القـوم الذيـن هُـدوا   وبفضْل الله قد سعِدُوا
ولغـير الله مـا قصَـدُوا   ومـعَ القـرآن في قـرنِ
أهـلُ البيت المصطفى الطهُـر   هـم أمـانُ الأرضِ فادكِـرِ
شـبهوا بالأنجُـم الزهُـر   مثلمـا قـد جـاء في السُّـننِ
وسـفينٌ للنجـاةِ إذا   خفْـتَ مـن طوفـانِ كل أذَى
فانـجُ فيهـا لا تكـونَ كـذا   واعتصـم بـالله واسـتعن

وقال شيخي السيد علي البدوي جمل الليل، كان لله معهم:

قـومٌ بتطهيرهِـم نـصَّ الكتـابُ وقد   قيـلَ الصـلاةُ عليهـم أنهـا تجـبُ

قــومٌ هــم الكوثـر المعطَى لجدِّهم   من حظِّ شـانيه وهو الأبـتر العَضـبُ
قـومٌ هـم أنجـمُ الهـدَى هـمْ سـفنُ   النجـاةِ منهُم يـزولُ الغـيّ والعطبُ
قـومٌ شـعارهمُ تقـوى الإلـهِ بهـا   عَلَـوا على من علاهُ الملك والنَشَـبُ
قــومٌ دِثارهُــم زهــدٌ فخارُهــم   تواضـعٌ مـا بهـم مـن غـرّه النسـبُ

وقلتُ متطفلاً، عفا الله عنّي:

لا تعجبُوا إن لم تروا شمْسَ الضّحى   فالشـمسُ لا تبـدو عـلى العميـان
أم تحسـدُون النـاسَ إذْ آتاهـمُ   الرحمـنُ فضـلاً جـاء في القـرآنِ
هـم آل بيـتِ المصطفى سرُّ الهدى   ومحبُّهـمْ قـد فـاز بالرّضـوانِ
حبـي لهـم بجَوانبـي متمكـنٌ   فبغيضكـمْ موتُـوا أولـو العـدوانِ
فودادُهـم فـرضٌ وقد نـصَّ الكتابُ   ومـن يعـارضْ بـاءَ بالخـذلانِ

فائدَةٌ وعائدَةٌ

قال الشيخ يوسف النبهاني قدس الله روحه: «آل باعلوي الكرام ساداتُ الزمان، الذين لا أعتقد ـ واللهُ على ما أقول وكيلٌ ـ أنه يوجد في الدنيا نسبٌ أصح من نسبهم إلى رسول الله ﷺ. وغاية ما يكونُ من صحة الأنساب أن تبلغَ إلى درجة صحة نسبهم فإنهم أولاد رسول الله ﷺ، من سلالته الطاهرة بيقينٍ لا يشكّ في ذلك إلا كلُّ محروم»، من «جواهر البحار»، للمؤلف النبهاني، الجزء الثالث ص ١٩٧.

وأهـداف طريقـة السـادة آل باعلـوي واضحة كما أشـاد بها قطب الارشـاد الحبيب عبد الله بن علـوي الحداد:

عليـك بتقـوى الله في السِّـرّ والعلَـنْ   وقلبـك نظفـه مـن الرجـس والـدرَنْ

وخالفْ هوَى النفسِ التي ليس قصْدُها ... سوى الجمع للدار التي حشوها المحَنْ
واصحَبْ ذوي المعرُوفِ والعلم والهدى ... وجانبْ ولا تصحَب هُديتَ من افتتنْ
وإن ترضَ بالمقسُوم عشتَ منعماً ... وإن لم تكن ترضَى به عشْت في حزَنْ
وصل بقلبٍ حاضر غير غافِل ... ولا تلهُ عن ذكْر المقابر والكفَنْ
وما هذه الدنيا بدار إقامةٍ ... وما هيَ إلا كالطريق إلى الوطَنْ
وما الدارُ إلا جنّة لمن اتقَى ... ونارٌ لمن لم يتّقِ الله فاسمعنْ
فيا ربِّ عاملنا بلطفِكَ واكفنَا ... بجُودك واعصِمْنا من الزيغِ والفتنْ
ووفقْ وسَدّد واصلحِ الكُلّ واهْدِنا ... لسنة خير الخلقِ والسيّد الحسنْ
عليه صلاة الله ثم سلامُه ... صلاةً وتسليماً إلى آخِر الزمنْ

ونسج على منواله مولانا الحبيب علي بن محمد الحبشي رضي الله عنهم:

ومما يسُر القلْبَ مني لزومكُم ... طريقةَ آبائي وأهلي وأجدادي
من السلف القَوم الذين توجّهوا ... إلى الله يقفُون النبي المصْطفى الهادِي
وها هي أعمالٌ خلتْ عن شوائبٍ ... وعلم وأخلاقٌ وكثرةُ أورادِ
وأربابها يسْعُون فيها بوُجهَةٍ ... فهُم بين عبَّادِ بعلمِ وزهّاد
أولئك قومٌ شرفَ الله قدرَهم ... فهم بين أقطابٍ كرام وأوتَادِ
وممن مضى من أهل عصري أئمةٌ ... أخذتُ طريقَ الحق عنهم بإسنادِ
مسلسلةً منهم أسانيدُ أخذِهم ... إلى خير محمُود وأشرف حمّاد
طريقة رشْدٍ قد تلقّى الذي لها ... من السِّر أمجادُ خلائفُ أمجادِ

أبٌ يتلقى عن أبيه وهكذا فيا لكَ من آباء كرام وأولاد

ثم قلتُ أنا متطفلاً في موائدِه:

طريقةُ آل باعلَوي تسوقُ النفس للعُلْوي
مسلسلةٌ ومحكمَةٌ على التحريفِ لا تلْوي
وإسنادُ الطريقَة عن أساطينِ الهدَى مرْوي
وهم عن سيّد السّادا تِ فاسلكها ولا تغْوي
طريقتهُم عباداتٌ ومنهلُ علمِهم يرْوي
لهم هممٌ لهم ذممٌ وهم في أوفَر النذْوي
وسرُّ القَوم في حُبّ وبغْضٍ هكذا مطْوي
لمنهاجِ الحقيقة والتـ ـصَوُّفِ كلهم يحْوي
وإحياءُ علومِ الديـ ـن مطمَحهُم بلا غرْوي
ووازَى الشاذلية نهـ ـجُهم في الصدق يستَقْوي
يقيمُون السماعَ ولا لهم همٌ سوَى المحْوي
ولا يألون جُهداً في ارتياد الحقّ إلى الروِّ
ألا هُمْ أولياءُ اللـ ـه في العِزِّ والشَّأوِ
بهم يا ربّ فارحمْنا ويسّرْ كُلّ ما ننوي

وختاماً، روى البخاريُّ عن ابن عمر رضي الله عنهما: أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال: «ارقُبوا محمداً في أهل بيته»، فأحبّهُم لله، يحبك الله ورسولُه.

[شرح البيتِ العشْرينَ]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

فهـذِه رسَـالة تُنْبِـي	بنـصِّ القُـرآن أتليهَـا

فهذه المعارفُ والحقائقُ. أو: هذه الفضائل. أو: هذه القصيدةُ، رسالةٌ تنبع مكنونَ العلوم. أو: تنبي حُجَج الخصم، أي: تكِلّها وتجعَلُها نابيةً لا تقطع، مدحُوضةً لا تُسمَع. وجميعُ ذلك أذكرُها وأتلوها حالَ كونها ثابتةً ومقرونةً بنص القرآن العظيم، وبنص الحديث الشريف، إذ النبي ﷺ هو المبيّنُ للقرآن، والشارح له.

وكُل قولي في قصيدتي هذه عامةً، وكُل فضيلة في أهل البيت، وفي أهل الكساء خاصَّةً، لها شاهدٌ في نص القرآن، أو مفهومه، أو فحواه، أو في الأحاديث النبوية، يعرفُه الراسخون في العلمِ، والعلماء العاملون.

[شرح البيتِ الحادي والعشْرينَ]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

وأشْـكُر لنعمَـةْ ربِّـي	ولكنِّـي لا أحْـصِيـهَا

وبعد أن ذكَر سيدنا الناظم أسراراً وحقائقَ، دخل يشكر نعمَة ربه التي أولاه إياها، ونعمُ الله كثيرةٌ، قال الله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

والشكرُ أمرٌ مطلوبٌ في الشريعة، قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١]. ومن شُكرِ النعمة إفشاؤها، ولكنه اعترفَ، أي سيدنا الناظم، بأنه لا يحصي نعمَ الله. قال الله تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [النحل: ١٨]، لا تطيقوها، ولا تضبطوها. روَى مسلمٌ، وأصحاب السنن، عن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ كان يقُول: «اللهم لا أحصي ثناءً عليك، أنتَ كما أثنيت على نفسك».

ومن الدعاء المأثور عن السلف الصالح: «الحمد لله رب العالمين حمداً يوافي نعمة ويكافئ مزيده، اللهم ربنا لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك وعظيم سلطانك، فلك الحمد حتى ترضى، ولك الحمد إذا رضيتَ، ولك الحمد بعد الرضا. اللهم لك الحمدُ وأنت للحمد أهلٌ». وقال تعالى: ﴿وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧].

[شرح البيتِ الثاني والعشْرينَ]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

وأبديتُ منهَا وهْبي عـلى مَـن تبغنـي فيهَـا

أبدَى بمعنى أظهر. أي: أظهرتُ من النعم ما أعطِيتُه شكراً. أو: أبديت من علومي قدْرَ معرفتي. أو: بينتُ سرَّ طريقتنا على قدر عطائي منها، أي علمي فيها.

أظهرتُ كلَّ ذلك على من تبعني في تلك العلوم، أو في تلك الأسرار، أو على من أراد أن يتبعني فيها، باعتبار ما يؤولُ. أي: سيدنا الناظمُ قالَ ما قال، ليقدر السالكُ على متابعته والاقتداء به، لا رياءً ولا سمعةً. وما قلتُ في قصيدتي من دقائق، أو شطحَاتٍ، كما يسمونها، كان في حال السكر، والغيبوبة الجلالية.

وإنما السرُّ في إباحة سيدنا الناظمِ حقيقةَ السلوك، هو الخوفُ في الدخول في حديثِ رسول الله ﷺ الذي رواه ابنُ عدي عن ابن مسعود رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من كتمَ علماً عن أهله ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار»، وهو حديث صحيح.

[شرح البيتِ الثاني والعشْرينَ]

قال الشيخُ رضي الله عنه:

وأختِـمْ بخـير الرّسُـلِ نبـيِّ الـهدَى هاديهَـا

وأختمُ قولي وقصيدتي بمدْحِ خير الرسل، سيدنا محمد ﷺ، وثنائِه وشكره، لأنه من

أعظمِ النعم. وسيدُنا محمد ﷺ نبيُّ الهدى، وشرف التقى، وإنسانُ عين الكمال، وسيدُ الكل، وهادي الرسل ومن دونهم، والهادي إلى الصراط المستقيم. وأن سيدَنا محمداً ﷺ قد تركَنا على محجة بيضاء، وعلى سمحة حنيفية، وخلف فيها الثقلينِ: كتاب الله، وعترته. ما إن تمسكْنا بهما لن نضلَّ من بعده أبداً.

﴿سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٨٠﴾ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٨١﴾ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الصافات: ١٨٠].

[خاتمة المؤلف]

تشرفَ الكتابُ بقراءتي له كلّه على والدي الإمامِ الحبيب أحمد مشهور بن طه الحداد، وسُرَّ به سروراً، ودعَا لي بدعواتٍ عاد عليَّ نفعُها ببركاته. ألفته في ٨/ ٣/ ٨٦هـ وتمَّ تبييضُه وتصحيحه في ١١/ ١١/ ٨٧هـ، بمنبع الرو (ممبروي)[1].

***

(١) وكان الفراغ من تصحيحه ومقابلته على أصل مؤلفه رحمه الله، ليلة السبت ١٠ ربيع الآخر سنة ١٤٤٣هـ = ١٣ نوفمبر ٢٠٢١م، على يد محمد بن أبي بكر باذيب، عفا الله عنه.